لنا عبد الرحمن

ثلج القاهرة

رواية

الكتاب: ثلج القاهرة (رواية)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

ثلج القاهرة/ لنا عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **1 – 448– 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **13278 / 2017**

ثلج القاهرة



إهداء:

إلى أزهار أحمد وسولاف هلال

"الكون إنسان كبير"

رسائل إخوان الصفا

الفصل الأول

نورجهان

في بستان بيتنا الكبير، فوق قبر جدِّي زرعوا شجرة مانجو. هناك دفنوا جدتي الأولى وعمتي، وأبي، وأمي. هناك دُفنتُ أنا أيضًا، في ظلال ذاك القصر، المهجور والأعزل. كنت آخر من بقي فيه، وآخر من رحل عنه.

* * *

استيقظت "بشرى" من نومها وهي ترتعش من البرد، كما لو أن الثلج الذي مشت عليه حقيقيٌّ بالفعل، ألم شديد يمسك قدميها، تُحسُّ أنهما مربوطتان بحبال تمنع حركتهما. في بعض الأحيان ينتابها شكٌّ أنها عاجزة عن المشي حقًّا، وأن جزءًا منها مشلول تمامًا، حينها تسارع الركض نحو النافذة، تفتحها قليلًا، تنظر إلى مستوى بصرها في العتمة والفراغ. الحياة صاخبة في الشارع، لكنها هنا في علوٍّ يرتفع عن الأرض لأمتار كثيرة تبدو نائية عن عالم صاخب تنفصل وتتصل معه حسب الحالة.

تبدأ في التنفُّس بعمق.

تكرَّر الحلم...

القاهرة يغمرها ثلجٌ أبيض، وهي تركض على أرض مغطاة بالبياض، ثم تأكل نتفًا من الثلج، فتتجمَّد، وتصير تمثالًا. يخيفها الحلم، ترعبها فكرة الإحساس بالحياة والعجز عن الحركة، أهذا ما يكون عليه الموتى، لحظة

مفارقة الروح للجسد، واعين لكل ما يدور حولهم، لكنهم عاجزون عن الفعل؟

من النافذة تتسلَّل أصوات هي جزء من المشهد، صوت زمامير السيارات، أغانٍ، موتوسيكلات، أطفال يبكون، رجال يتبادلون الصراخ والشتائم.

الوقت ليل.كأنَّ أسماء غير موجودة الآن. هل نامت؟ هل عادت؟ هل هي في سريرها، أم أنها وحيدة في البيت؟ فكَّرت في هذا وهي تنظر نحو لوحة أسماء الله الحسنى التي تواجهها على الحائط. كانت تقف كل يوم أمامها مناجية الله بترديد بعض أسمائه. وجدت هذه اللوحة هنا منذ سكنت البيت مع أمها، لا تعرف من علَّقها، ولا لماذا تركها ولم يأخذها معه، بجوارها تمامًا لوحة فيها أبيات شعر للحلاج تقول:

يا نسيمَ الرِّيحِ قُولِي للرَّشَا	ما زَادَنِي الوَرْدُ إِلَّا عَطشَا
لِيْ حَبِيبٌ حُبُّه وسْطَ الحَشَا	إنْ يَشَا يَمشِي علَى خَدِّي مشَى
رُوْحُه رُوحِي ورُوحِي رُوحُهُ	إنْ يَشَا شِئتُ، وإن شِئْتَ يشَا

أهدى لها ناصر هذه الأبيات بعد أن كتبها بخط الثُّلُث على قطعة قماش كبيرة خاصة بالرسم ثُمَّ قامت هي باختيار إطار مناسب لها ووضعتها على حائط غرفتها، ظلَّت اللوحة مكانها حتى بعد انتهاء زواجهما. ذات مرة فردت أمامه ورقة صغيرة كتبها أبوها بخطِّ يده لتلك الأبيات، حكت له أنها ما زالت تحتفظ بالورقة مطوية بين أوراقها المهمة،

لكنها لم تحكِ له عن ولعها بشخصية الحلاج وأشعاره منذ كانت تجلس ساعات في مكتبة أبيها تقرأ، بينما كان ينشغل ببيع الكتب للزبائن، أو شرب الشاي مع أحد رفاقه الثوريين القدامى. لم تحك له عن أشياء كثيرة تمنَّت أن تقصَّها عليه، لكن حكايتها معه انتهت بسرعة، وكلما كانت تنوي سرد تلك الذِّكريات، تتوقَّف لإحساسها أن ناصر لن يعبأ كثيرًا بتفاصيل ذاك الماضي، فهو منهمك بواقعه بشكل تام، يصعب معه أن يكون مستمعًا جيدًا.

تحوَّل العرق البارد الذي أحسَّت به ينهمر منها لحظة يقظتها إلى عطش قوي في حلقها الجاف، ورطوبة في داخلها، إنها الرَّغبة، الآن، لا شيء آخر، ليست الحاجة إلى الاحتضان، إلى الدفء، بل مجرد رغبة. الرغبة أكثر رحمة من الحاجة إلى المحبَّة، تأتي الرغبة وتمضي، بلا عناد، بلا مراوغة، لكن التوق أمر شاق، وشقي على النفس. في وقت من الأوقات كان من الممكن أن تحكي لناصر عن الرغبة فقط، في جوهرها الحقيقي، ليس التوق، ولا المحبَّة. لأنَّ الرَّغبة أكثر ما يستطيع منحها إيَّاه، وحين وعت أنه يحسُّ بالمجازفة حين يتركها تتقدَّم إلى مساحات من ذاته تتجاوز حدود الجسد، مضت بعيدًا، تركته وحيدًا مع مخاوفه، وعادت هي إلى وحدتها أيضًا. في الوحدة إخلاص للذات، أكثر وعيًا من البقاء في حالة ملتبسة، تحمل ثنائيات متناقضة.

التنبُّه.. التنبُّه.هل تميز الآن بين الرغبة، والحاجة إلى الدفء، لمجرَّد القيام بتمرين على اليقظة؟

فتحت يدها، نظرت إلى باطن كفِّها، ماذا فيه بعد؟ ماذا فيه؟ كرَّرت السؤال داخلها عدَّة مرات.

كادت تبكي.. وهي تردِّد: "لماذا أنا هنا؟ ما الذي عاد بي إلى هـــذا المكان سوى رغبة امرأة ميتة؟"

قالت لها أمُّها قبل موتها بأيام قليلة:

"لا تبحثي في ما لا طائل منه، لأنك ستسيرين في طريـــق مســـدود، أمضيتُ عمري وأنا أبحث من دون الوصول إلى نتيجة."

عن ماذا كانت تبحث أمها؟ وما الذي لم تجده؟ وعمَّ جـــاءت هـــي تبحث هنا؟

صوت أزيز باب البيت الرئيسي يدفعها للتنبُّه إلى زمن الآن. عادت أسماء من الجريدة، ودخلت إلى غرفتها، يبدو أنها في مزاج ســـيئ، تُميِّـــز حالتها حين تصفع الباب بقوَّة لحظة دخولها، كما لو أنها تودُّ إنهاء علاقتها مع العالم الخارجي، ثم تتجه نحو غرفتها مباشرة، من دون محاولة التحدُّث معها. خلال ما يتجاوز عامين، عبرت علاقتهما عدة مراحـــل اختزلـــت أعوامًا كثيرة، في مواقف متشابكة وضعت أسسًا متينة للعلاقة بينهما.

حاولت بشرى العودة إلى النوم، لكنها لم تستطع. فتحـــت جهـــاز الكمبيوتر، وفي ملف بعنوان "جرافيك" بدأت تضـــيف رتوشًـــا علـــى اللوحات التي تعمل عليها. الجنية التي تخرج من نبتة القرع وهي تمســـك العصا السحرية، تبدو جنيَّة إفريقيَّة فضوليَّة يتكرَّر ظهورهـــا في معظـــم

اللوحات التي تعدُّها بشرى، صورة بطلة قصة " بياض الـثلج والأقـزام السبعة" ليست بيضاء، وسندريلا لم تكن طيبة كما هو شائع عنها، كانت تعيد تدوين الحكايات، كتابتها مع رسومات من تصـميمها، ووضـع عبارات توضح الحكاية. في أفلام الأطفال يوجد غابات وأنهار، يبدو ماء النهر شفافًا جدًّا، وفيه حجارة يمكن القفز عبرها إلى الضفة الأخرى، ولا يوجد غبار أو قمامة في الشوارع، كما أن الأشرار ينـالون عقـابهم في النهاية، لم تكن تميل إلى تلك الأفكار المثالية، وتفضِّل عليها منح الأطفال مساحة للتفكير والتجربة، والخيال. عملها في جرافيك رسوم الأطفـال يجعلها تحلِّل ذاك العالم الملوَّن، وأكذوباته الجميلة الـتي صـار الأطفـال يعرفون أنها كذب. كانت تفكِّر في إقامة معرض لوحات للأطفـال مـع عبارات صغيرة مع كل لوحة، بحيث تشكِّل اللوحات مجتمعـة حكايـة متكاملة. بدأت الإعداد لمشروعها بتأنٍّ، واضعة شيئًا من ذاتها مع كـل لوحة. رويدًا رويدًا صارت ملامح اللوحات تتشـكَّل في اتجـاه فكـرة مشتركة تبلورت تفاصيلها، لتحكي قصة الطفلة "نور" ورفيقهـا "رام." رسمت حكاية بطلتها الصغيرة، لوحة إثر لوحة. وحين عرضت اللوحات على أسماء، سألتها إن كانت "نور" هي ذاتها، فوجئت بالسؤال فسارعت بالنفي، لكنها فكرت إذا كان ما قالته أسماء يحمل شيئًا من الصواب، وأن كل رسوم الجرافيك تلك لفتاة وهمية تكاد قصتها تتشابه معها.

تأمَّلت اللوحات وهي تفكر: "ماذا يعني هذا إذن؟ هي لم تكن تـود أن ترسم ذاتها، بل أن تبتعد عن الحكاية الأصلية نحو عالم متخيَّـل، وإذا

كانت نور هي، فمن يكون رام إذن، في هذه اللعبة؟ من هو الولد الذكي والمشاكس، الذي يظهر مع نور في معظم اللوحات.

التتبُّع...

كانت تقوم بتتبُّع فكرة صغيرة عبرت ذهنها، بل هذا ما كانت تفعله في معظم الوقت، حتى صار سلوكها يفسر على أنه نوع غير مبرر من الغموض.

راودها نعاس طفيف، أقفلَت جهاز الكمبيوتر وهي تفكر أن النواة الأساسية في عملها تقوم على أخذ المخيلة على محمل الجد، احتضان الصور والحكايات الصغيرة، وتحويلها إلى واقع مرئي.

* * *

حين عشتُ في جسد "نورجهان" لم أكن أذكر شيئًا عن الفتاة التي كنتها من قبل، كان اسمها "سولاي" عاشت في زمن قديم، وفي أرض بعيدة عن هنا، كيف عاشت، وكيف ماتت، وما كانت غايتها في الحياة، ولم كانت أغنياتها تشبه موسيقى الغجر، ولم أحببت أنا عزف العود؟! إن عدم قدرتي على مواجهة ماضيها السحيق، على التحديق بزمنها في الظلام جعلني أهرب منها ومن أوجاعها الكثيرة. وكان ينبغي عليَّ أن أموت كي أعرف كل الحكاية، وأدرك ما حملته روحي منها.

لم أكن أنظر إلى الوراء، ليس علينا النظر إلى الوراء، بل في أعماقنا كي نخوض في العدم. إن معرفتنا بالعدم تجعلنا قادرين على معرفة القيمة الحقيقية للحياة، والسعي المستمر لمعرفة دورنا فيها. وأنا

عرفت دوري لكني لم أتمكن من القيام به. ليس المهم أن نعرف بقدر ما يهم أن نحقق فعليًا معرفتنا.

ما قمت بإنجازه في حياتي الماضية في عمر نورجهان، لم يكن مكتملًا أبدًا، ظللت جبانة وعاجزة عن الفعل، لذا ستظل روحي تتعذب حتى القيام بما أراده القلب. أين صار دفتر قصائدي الصغير، أين صارت ذاكرتي كلها؟ أين هو الطفل الذي رغبت في إنجابه؟ أحلام، ورغبات لم أخط نحوها، وضع لها الموت النهاية، لكنها ظلت تشدُني للعودة من جديد.

لم أتمكّن من تحقيق شيء مما رغبت به. بقيت جزءا كبيرًا من حياتي قابعة في ذاك القصر البارد، وحدي، أراقب أيامي وهي تمضي وأنا عاجزة عن الفعل. ورغم هذا أحس أني في حياتي الأخيرة، عشت أطول من حياة "سولاي الغجرية"، يوم مت وأنا في السادسة عشرة من عمري بعد مرض شديد ألمَّ بي. مت باكرًا، وحين أخذتُ الفرصة لأعيش من جديد، لم أملك القدرة على الفعل أيضًا، ولم أقم بشيء إلا بالتعاطف مع كل ما ينبض بالحياة حولي. حينها، لم أكن أذكر شيئًا عن الفتاة اليافعة التي كنتها. الآن يمكنني الحديث عنها عبر هذا العدم، أحكي عن عمرها القصير، تلك الغجرية الراقصة التي رافقت طبيبًا عربيًا لم يتمكن من إبعاد الموت عنها، لكن بما يجدي التذكُر الآن؟ التذكُر وحده لا ينفع حين نكون عاجزين عن الفعل.

لكن بشرى أيضًا لا تعرفني بما يكفي، لا تعرف حكاية نورجهان. لا يهم أن تعرفني، المهم أن تحس بوجودي، لست روحًا أخرى، لست وهمًا، لست سرابًا، أنا هي، وهي أنا. أعيش في هذه الحياة فيها

وعبرها ومن خلالها، وهي تعيش عبري ومن خلالي منذ زمن ضاعت حدوده.

* * *

لم تكن بشرى تحكي عن الحياة الأخرى التي تراها، أو تعيشها، لن يصدقها أحد لو حكت قصة امرأة تشبهها، لكنها لا تعرف من تكون، ولا تتمكن إلا من تلمس حكايتها عن بعد، بلا قدرة على الاقتراب الكافي الذي يضمن معرفة الحقيقة.

عبر ظلال الواقع، وفي لحظات خيال ما قبل الإغفاء، تطل في ذاكرتها ساحة بيت كبير، ضخم، من طابقين، توجد في مقدمة البيت مساحة شاسعة مرصوفة برخام أبيض، ويفصلها عن الشارع بوابة رئيسية كبيرة من الحديد المشغول بالنحاس. البيت فيه أعمدة تشبه أعمدة القصور، فيه أكثر من باب، بل بوابات خارجية وداخلية، وممرات متوارية تصل أجزاءه الأمامية والخلفية، نوافذه الداخلية عريضة ومرتفعة، مسوَّرة بحديد في جزئها الداخلي، ولون الخشب أخضر فاتح. الجدران الخارجية مدهونة بلون كريمي، وبعد بضعة أمتار من البوابة، في داخل البيت توجد عدة درجات، ثم مسافة صغيرة تقود إلى ثلاث درجات أخرى قبل الوصول إلى الدرج المؤدي إلى باب البيت الرئيسي.

في الفناء الخلفي للبيت، يوجد بستان كبير فيه أشجار مانجو، وموز وجوافة وخوخ، الجانب الأيسر منه مطل على النيل، وكان هناك شرفة دائرية صغيرة تكاد تكون ملامسة لمياه النهر.

ترى بشرى في قلب ذاكرتها بنتًا صغيرة، في العاشرة من عمرها، تركض في البستان، تُضفر شعرها في جديلة طويلة خلف ظهرها، تلعب مع فتاة أخرى وصبي، جميعهم كانوا يلعبون الاستغماية خلف شجرة الموز العريضة. يركضون، ويضحكون بمرح طفولي تلاشى سريعًا.

فجأة، يبدو البيت الكبير كما لو أنه كبر مائة عام، الأعمدة تقشَّر طلاؤها، واللون الكريمي النقي للجدران الخارجية صار باهتًا، النوافذ الشامخة ذات الخشب الأخضر تقشَّرت وهرمت، والحيطان الداخلية للبيت فيها شقوق وخربشات، لكن السقف العالي وحده ظل بعيدًا ينظر بحزن مهيب لما يفعله الزمن بالأشياء من حوله. ذبل البستان الخلفي، الأرض جفت، ومياه النيل لم تعد مرتفعة حتى تكاد تلامس الشرفة الدائرية.

الطفلة ذات الضفيرة التي كانت تلعب الاستغماية بفرح كبرت، وصارت امرأة تجلس وحدها في المساء عند الشرفة الصغيرة المواجهة للبوابة الرئيسية، تستعيد ذكريات أيام لم تكن فيها وحدها، حين كان القصر مزدحمًا بسكانه. تقترب منها خادمة نوبية سمراء، تكبرها بأعوام قليلة، يتضح من حوارهما أن حياتهما معًا مستمرة منذ زمن طويل، تعطي للسيدة علبة السجائر وتمضي إلى داخل البيت، لم يبق في البيت سواها هي وسيدتها، أما من بقي حيًّا من سكان القصر فيأتون ويذهبون في زيارات عابرة.

في يد السيدة دفتر صغير، تسجل فيه يومياتها، وتكتب قصائد شعر. كانت تدخن كثيرًا لكن بملل ظاهر، ما إن تأخذ عدة أنفاس من السيجارة، حتى تطفئها بعصبية قبل أن تنهيها، وكما لو أنها تشعلها بهدف الإطفاء، وتستمتع بسحق حيوات تلك السجائر المتلاحقة. وبعد أن تُدخن ثلاث أو أربع سجائر بهذه الطريقة المتوترة، تُشعل السيجارة الخامسة، وتدخنها بهدوء يتناقض مع الحالة الأولى.

كلما أمعنت بشرى في ذاكرتها أكثر، تمكّنت من رؤية تفاصيل المرأة: ترتدي ثوبًا بنفسجيًّا من قماش "الجورجيت"، تتجمّع عند مقدمة صدره كشاكش رقيقة، يضيق الفستان عند الخصر، ثم ينسدل قليلًا عند الوركين، يصل طوله إلى ما بعد الركبتين بشبر واحد. لون شعرها كستنائي فاتح، تجمعه إلى الخلف على شكل موزة، تضع فيه مشبكًا أسود. في أذنيها قرطان من اللؤلؤ، محاطين بإطارين من الذهب، وجهها أبيض ياسميني شاحب، فيما عيناها عسليتان وأهدابها كثيفة، وحول عينيها بعض الخطوط الرقيقة التي منحت جمالها نضجًا.

توقّفت بشرى في ذاكرتها عند عنق المرأة، كان طويلًا وأملس، تحيط به سلسلة ذهبية تتدلّى منها قطعة ذهب تتشابك فيها حروف اسمها بالعربية. دقّقت في تأملاتها، غاصت في العتمة، أكثر. بصعوبة بالغة، شاهدتها تعبث بالسلسلة بيدها اليسرى، فيما يدها اليمنى تكتب بانهماك. تحرك يدها اليسرى عن السلسلة لتمسك بسيجارتها بين الإبهام والسبابة، تحركها بينهما بقسوة قبل أن تسحقها، على وجهها أمارات ألم عتيق.

تعود اليد إلى السلسلة تحركها بيأس، تتابع بشرى حركة اليد اليائسة، تركز وعيها قرب الحروف، تمكنت أخيرًا من تمييز الاسم المعلق في السلسلة: "نورجهان."

* * *

في الصباح، حين ارتفع صوت المنبه، كانت على إفريز النافذة المفتوحة، عصفورة تنقر فتافيت الخبز الذي تضعه بشرى لها بالقرب من شتلة "الياسمين" الصغيرة المزروعة في إناء فخاري معلَّق بإطار حديدي عند حافة النافذة. كانت بشرى ما تزال نائمة على وجهها، وذراعها اليسرى مسدلة إلى جانبها. أسكتت المنبه، وشردت عيناها تحدقان في السقف، لم يكن أمامها وقت كثير، ينبغي عليها الذهاب للعمل بعد ساعة.

عندما فتحت دولاب ثيابها، جذبتها البذلة السوداء الأنيقة ذات الخطوط الرمادية الرفيعة، مضى عليها أكثر من عامين ولم تلبسها، كانت قد نفرت من اللون الأسود منذ وفاة أمها والتزامها به لعام كامل، لكن اليوم قرَّرت لبسه مع وضع لمستها الخاصة لكسر سيطرة السواد. ارتدت قميصًا حريريًّا ملونًا، بدا منسجمًا مع البذلة، وضعت يدها في جيب الجاكيت فوجدت ورقة مكتوبة بخط يدها فيها عبارتان دوَّنتهما ذات يوم:

"تسلَّق إلى أعلى الشجرة السامقة، وامشِ على الغصن الذي تخشى أن ينكسر تحت وطأة ثقلك، دعه ينكسر– حكمة قديمة." وفي أسفل الورقة وجدت عبارة أخرى تقول: "هذا أيضًا سيمر"

أعادتها العبارة الثانية لأوقات شاقَّة، وشقيَّة، حين كانت تردِّد مئات المرات في سرها "هذا أيضًا سيمر..."

لم يكن لدى بشرى أي هدف من المجيء للحياة في القاهرة، سوى تنفيذ رغبة والدتها. في كل يوم تفكِّر بالمغادرة، لكنها لا تحسم أمرها أبدًا. كل الأشياء حدثت بسرعة متلاحقة منذ موت أبيها، وإصرار أمها على بيع البيت والعودة إلى مصر، ثم موت أمها بعد عودتهما إلى القاهرة بتسعة أشهر فقط.

تسعة أشهر تكفي لقدوم مولود جديد، وتتسع أيضًا للانتقال والحياة في بلد آخر ثم الموت. الأحداث كلها تبدو مثل خيالات متسلسلة أمام عينيها، لكن لحظة موت الأم، لحظة دفنها تبدو بالنسبة إليها اللحظة التي أحسَّت فيها بفقدان الرغبة بالحياة. رحلتها مع الصمت بدأت منذ دخولها للمشاركة في غُسل والدتها. كانت هي وأسماء، والمرأة التي تقوم بالغسل. لا تستطيع أن تحدِّد سبب دخول أسماء حياتها، ولماذا انتقلت لتقيم معها، كل ما تذكره أن أسماء حضرت يوم وفاة والدتها، من أرسل في طلبها، وكيف عرفت أن أمها ماتت؟ لم تطرح على أسماء هذه الأسئلة لأنها تعرف أن عمو نجيب هو من قام حتمًا بالاتصال بها للمجيء والبقاء معها.

كيف تَّمت إجراءات الدفن، ومن قام بكل التفاصيل، هي لا تذكر شيئًا عن هذا، كل ما تستطيع تذكره جيدًا وجه نجيب القاضي المحتقن من حزنه المكتوم، حديثه مع أسماء عن التفاصيل، ثم أسماء بجسدها القوي

والمكتنـــز تتحرَّك بالنيابة عنها لتدير جهاز التسجيل على القرآن الكريم. ما عرفته بشرى عن أسماء قبل قدومها للحياة في القاهرة مجرد عبـــارات متقطعة تحكيها الأم وهي تذكر قريبتها سامية، وابنتها أسماء. ماتت سامية منذ أكثر من خمسة أعوام، وظلت أمها كلما أتت إلى مصر حريصة على التواصل مع أسماء وأخيها رضا.

لم يكن هناك معزون كُثر، أشخاص معدودين هي لا تعـــرفهم، ولا يمكنها تذكر وجوههم، ومن المؤكد أنهم جاءوا لأنهم يعرفون نجيـــب أو أسماء، فهي لا تذكر أنها التقت بأحد منهم مع أمها، أو حتى سمعت عنهم.

الأشهر التي تلت حدث الموت كانت متشـــابهة، ظلـــت بشـــرى متمسكة بالبقاء في حالة العتمة، صلتها الوحيدة مع الحياة كانت أسمـــاء ومحاولاتها المستميتة كي تُخرجها من العزلة والصمت. نجيب القاضي كان يُحضر لها كُتبا عن الحب، عن الموت، عن المتعة، والحياة. لكنها كانـــت عاجزة عن فعل أي شيء، كانت عاجزة فعلا عن التحرك من ســـريرها، ليس لآلام في جسدها، بل لعلة في روحها لا تجد لها علاجا.

لم يكن لديها صلات حميمة في دمشق أيضًا، لـــذا ظنـــت الأم أنهـــا ستحميها أكثر حين تعود بها إلى القاهرة، ولم تكن تدري أنها تأخذها مـــن جحيم إلى آخر. أصرت الأم على بيع البيت الذي سكنوه لأعوام طويلة، هكذا قطعت صلة ابنتها بتلك المدينة نهائيا، وهذا ما يبـــدو أن الابنـــة لم تتمكن من مسامحة أمها عليه إلا بعد موتها بكثير من الوقـــت، بعـــد أن تصالحت مع فكرة الموت، على اعتبار أنه امتداد للحياة.

عاد أبوها محمود الرفاعي من مصر، بعد بقائه فيها لسنوات بحجة دراسة الحقوق، فيما الحقيقة أنه لم يكن ينوي البقاء في دمشق، بسبب تعرضه للاعتقال والسجن أكثر من مرة– وهروبه إلى لبنان ثم عودته– بسبب آرائه السياسية المعارضة للنظام، فقد أراد له أبوه أن يورثه مهنته في الحفر على الخشب "الأرابيسك." ولما كان الرفاعي الصغير لا يملك الصبر ولا طول البال، وكان ملولا وسريع الحركة، فإن محاولات أبيه المستديمة لم تجد في تعلمه أصول المهنة. لكن محمود الرفاعي عاد إلى دمشق بعد وفاة أبيه، ومعه زوجة مصرية: امرأة صغيرة، سمراء، بعينين وحشيتين وأهداب كثيفة، وشعر أسود طويل، ترتدي ثيابا عصرية، وتضع عطورا فواحة مما يثير غيرة النساء.

حاول الرفاعي الصغير أن يدير محل والده عبر استخدام حرفيين في المهنة على أن يتابع عملهم بعد الظهر، ويتفرغ صباحا للعمل في مكتب المحاماة، لكن بعد أشهر اكتشف أنه لن ينجح في الأمر. لكن الرفاعي لن يستمر في مكتب المحاماة أيضًا، لأن معظم القضايا التي تبناها كانت لمعارضين سياسيين، وكانت تنتهي بالخسارة، وصار الرفاعي يحمل لقب المحامي الذي لم يربح قضية واحدة، كان فخورا بهذا اللقب، إلا أنه لم يكن قادرا على الاستمرار في هذا المنوال طويلا بعد أن أغلق محل الأرابيسك، وبعد أن صارت أخته العانس سميرة تلمح من طرف خفي أنه بدَّد إرث الأب. سرعان ما قرر الرفاعي افتتاح مكتبة مكان محل الأرابيسك، أشرف بنفسه على متابعة شؤونها، وكان الوجود فيها لساعات طويلة يسمح له بممارسة هوايته المحببة: القراءة. عاش الرفاعي

حياة شبه معزولة، بين بيته، ومكتبته، ورفاقه الذين يتشابهون معه، ثوريون قدامى، انتهت أحلامهم في الجلوس على الرصيف يـــدخنون الأرغيلـــة، ويناقشون السياسة من طرف خفي، ملّوا، أصابهم العطب حيث لا تغيير، ولا تبديل، وستقع في عام **1982** أحداث سياسية تزيد من عزلة الرفاعي الصغير، لكن في نهاية ذاك العام سيرزق بطفلته: بشرى، الطفلة التي حلم بها، بعد أن ظلت زوجته لأعوام عاجزة عن الإنجاب..

في سنوات العقم تلك، كان الرفاعي بين هزل وجد يسمع انتقـــاد نسوة العائلة لزوجته: "ليتها قادرة على الإنجاب، ليتها كانت أبيض قليلًا، ليت لها صدرًا أكبر، وأردافًا أكثر امتلاء، ماذا رأى فيها، بناتنا أجمل...." وكان الرفاعي يواجه كل تلك التعليقـــات في حـــال وصـــلته مباشـــرة بأعصاب باردة، فيزيد من غيظ القائلات أكثر.

* * *

تناولت بشرى علبة المجوهرات الصدفية الصغيرة، التي أحضرتها أمها معها من دمشق، ووضعت فيها الحلي القليلة التي تمتلكها. عقد وقرط من حجر الزبرجد مشغول بالذهب، أسورة ذهبية عريضـــة عليهـــا نقـــوش فرعونية للإله حورس، سلسلة فضية فيها مفتاح الحيـــاة. قلبـــت عقـــد الزبرجد بين يديها، ثم أعادته إلى مكانه، تناولت سلسلة مفتـــاح الحيـــاة ولبستها حول رقبتها، أغلقت العلبة الصغيرة، وأعادتهـــا إلى مكانهـــا في الدولاب الخشبي الذي يضم ملابسها. نظرت إلى صورة أمها على الجدار وابتسمت لها.

لم يكن بينهما شبه واضح إلا في شكل عظام الوجه، وامتلاء الشفة السفلى، فبشرى ذات بشرة بيضاء شاحبة، وعيون ملوَّنة مستديرة، وشعر أملس طويل. كان أبوها يقول إنها تشبه عمتها بسمة، تلك العمة التي لم تلتقِ بها سوى مرات قليلة لأنها هاجرت إلى كندا بعد زواجها مباشرة، وصارت زياراتها إلى دمشق متباعدة. أما عمتها الكبيرة سميرة، فقد كانت تسبِّب لها الرعب بمحاولاتها الدائمة للتدخل في حياتهم.

"سأموت، وتأخذ سميرة منك البيت، تزوِّجك لأحد أولادها، أو تأتي لتسكن معك لأنك وحدك، وتتحكَّم بحياتك، تعمل ما لم تفعله في حياتنا."

هذا ما كانت أمها تردِّده بعد موت أبيها. وبين ليلة وضحاها باعت أمها البيت. لم تعرف بشرى كيف تمَّ كل هذا بسرعة، ظهرت تلك الذئبة التي ترقد بين ضلوع أمها، تحركت بخفة لإيجاد الحلول المناسبة من وجهة نظرها. حضرت بشرى إجراءات بيع البيت. مدَّت الأم يدها بقوة لتظهر ورقة مطوية، تبيَّن أنها عقد بيع للبيت قام به الأب قبل موته لصالح ابنته، وكل ما فعلته بشرى أنها قامت بالتوقيع.

كان بإمكانها الرفض إذن! ومقاومة قرار أمها بمغادرة دمشق. لو كانت تعرف أنها المالكة للبيت، كانت رفضت، وقاومت وظلت في بلدها تعمل وتواصل الحياة، لم تكن لتطاوع أمها في تحوُّل مصيري سيغير حياتهما معًا.

الأحداث تتالت بسرعة بعد ذلك، تجهيز أمتعتهما الخاصة. وبعض الحاجات البيتية التي اعتبرت الأم أنها أشياء ثمينة. وفي حقيبة كبيرة مغلقة، وضعت الأم مفارش مطرزة بخرز لامع، وستائر من الساتان الذهبي، وقماش بيج شفاف مع الستائر الذهبية. أطقم مخدات، وملاءات حريرية للسرير. يومها فتحت الأم تلك الحقيبة أمام عيني بشرى، ثم أغلقتها بسرعة وهي تقول:

"دي شنطة جهاز عرسك"

لمعت عينا بشرى بدهشة أمام الأشياء اللامعة والمطوية بعناية، إنها المرة الأولى التي ترى فيها تلك الشنطة. كان لأمها أسرار لا تنكشف بسهولة.

"وعفش بيتنا؟" سألت أمها

"بعت البيت مع العفش."

هذا كان جواب الأم، وهي تتحرَك بسرعة كما لو أنهما على وشك الفرار من جريمة قامتا بها، ولا سبيل لمداراتها إلا بالهرب. تعرف بشرى أن عمتها سميرة لم تحبهما يومًا، وأنها ستفكر في الاستيلاء على البيت، رغم كل ما تملكه، لأنها تعتبر أن هذا حقها في ميراث أبيها. لكن بشرى لم تكن مقتنعة بتلك الطريقة التي رتبتها أمها للمغادرة بسرية.

"سنسافر قبل أن يصل الخبر إلى عمتك، وتعرف ببيع البيت، لن نسلم من لسانها، وأذاها."

قالت الأم يومها.

غادرتا معًا، في يوم جمعة، بعد أذان الظهر. أم أرملة، وشابة يتيمـــة، ترتديان السواد. هذا اللون الذي ظلت الأم ترتديه حتى لحظة موتها. أما بشرى فقد تماهت معه، فلم تعد تميِّز، بينه وبين أي لون آخـــر، لأنهـــا لم تتمكَّن من تقبُّل حقيقة موت أبيها، ثم موت أمها بعد أقل مـــن عـــام. لم تستوعب واقع بقائها وحيدة في هذا العالم.

كل التفاصيل تبدو ضبابية بالنسبة إليها. متى تواصلت أمهـــا مـــع قريبها نجيب القاضي؟ متى طلبت منه أن يستأجر لهما شقة، ويضع فيهـــا أثاثًا بسيطًا؟ كيف حدث كل هذا؟ هي لا تعرف... لا تعرف... كل ما تدركه أن أمها صارت قادرة على القيام بدور الأب والأم في آن واحد، كيف لتلك المرأة التي كانت معتمدة على زوجها طوال أعـــوام طويلـــة مضت، أن تقود دفة حياتها فجأة؟ هذا ما كانت بشرى تطرحـــه علـــى نفسها، حين تعيد شريط ذاكرتها بحثًا عن الإجابات التي تريدها.

في المطار، يختم ضابط الأمن جوازي السفر. تنبسط ملامح أمهـــا، سائر التفاصيل تتم ببطء لكن بسلاسة. خمس حقائب يـــدفعهما حمـــال أمامهما، يسير معهما إلى الخارج، تعطي أمها للرجل عشرة جنيهات، قبل أن تنظر إلى وجوه الناس المحتشدة بانتظار العائدين من الســـفر. وســـط الزحام الكثيف يظهر وجه عمو نجيب، من تبقَّى من أقارب أمها. رجـــل سبعيني، ذو كرش ضخم، ووجه بشوش، شعره خفيف في مقدمة رأســـه، وله "خال" بارز على خده الأيسر، يرتدي بذلة سوداء أنيقة، كما لو أنه

ذاهب إلى موعد هام. ستكتشف بشرى فيما بعد أن تلك الأناقة جزء لا ينفصل عن شخصيته. سلم على أمها بحرارة، قبَّلها في رأسها وجبينها، وهو يقول لها:

"حمد الله على سلامتكم، أهلًا بك يا نبيلة، نورتِ بلدك."

أحبت بشرى "عمو نجيب"، ربما لأن والدها كان يحبه أيضًا، هو الوحيد الذي ظل على تواصل مع أمها بعد انتقالها إلى دمشق، كما أنه كان يلتقي بهم كلما جاؤوا صيفًا إلى القاهرة أو الإسكندرية.

اصطحبهما نجيب، إلى شقة صغيرة في المنيل، في الطابق الثالث، الشقة التي سيسكنان بها، المبنى على طراز البناء القديم، لكنه متماسك، ويبدو أن سكانه حرصوا على تجديده بين حين وآخر، فقد كان مدخل العمارة المرصوف بالرخام، يتناقض مع المصعد الصغير الذي يشبه المصاعد التي تراها في أفلام الأبيض والأسود. دخل نجيب إلى الشقة، وبدأ يفتح النوافذ الكبيرة، ويُبعد الستائر التي تحجب الضوء، ويسأل أمها: "هه إيه رأيك يا نبيلة؟"

أمها التي بان التعب على ملامحها، جلست عند أقرب مقعد، أحست بشرى كم تبدو أمها حزينة مثل طفلة يتيمة ومنسية، ردت باقتضاب:

"كويسة، بس محتاجة شوية توضيب."

وكما لو أن "نجيب" يدافع عن نفسه ويوضح أهمية ما فعله، قال وهو يوجه كلامه إلى "بشرى":

"كويس إنه لاقيناها بسرعة، انت ساكنة في جزيرة يا بشرى، المنيل زمان كان كل اللي يسكنوها باشاوات."

تمر في ذاكرة بشرى ذكريات تلك الأيام، وذاك الحوار الذي نسيته تمامًا. تنظر في تفاصيله، كما لو أن كل الأحداث كانت تقع مع فتاة أخرى تتحرك بالنيابة عنها. هل كانت أمها تحس أنها ستموت، لذا عجَّلت في السفر، أم أن الحنين فعلًا هو الذي أعادها للبحث عن جذورها القديمة؟ عما أتت تبحث أمها هنا ثم تركتها ومضت، ولا يوجد في يديها سوى كم من الأسئلة، ينتظر الإجابات.

* * *

حين غادرت المنزل كانت الساعة الثامنة صباحًا، صخب وضجيج الشارع أبعدها عن أفكارها المتشابكة، مشت عدة أمتار قبل أن تعبر الشارع لتسير قرب ضفة النيل، هذه الجولة الصباحية الصغيرة التي تستمتع بها صباح كل يوم، تجعلها قادرة على تحمُّل ما سيواجهها من صعوبات في باقي النهار. مرت قرب عربة الفول التي يتجمع حولها مجموعة رجال من أعمار مختلفة، يأكلون بشهية، تذكرت يوم كانت مع ناجي في "العتبة"، واقترحت عليه أن يأكلا الفول على عربة في الشارع، لم يتردد ناجي في القبول، يومها تعرفا إلى "عم خليل" صاحب عربة صغيرة ملونة بالأصفر والأحمر ومزينة بنقوش لإبعاد العين والحسد، وتحتل مكانتها عند مقدمة الرصيف تحت شجرة "جاكارنتا" عملاقة، فيما بعد أصبحت عربة عم خليل المكان المفضل لتناول الفول، صارا يترددان

عليها ويحضران أصدقاءهما للتأكد أن "عم خليل" يقدم ألذ طبق فول في مصر كلها، يأكلان ثم يجلسان على مقهى صغير في الشارع، يشربان الشاي، ويراقبان المارة، فيما ناجي يدخن معسل التفاح الذي تحب رائحته.

* * *

القصر الذي سكنته، كان يطل على ضفة النيل. عند المساء أسمع صوت العصافير، وهي تزقزق مناجية بعضها، ومن إحدى الشرفات أرى صفحة الماء الغامضة التي تدفن أسرارًا عتيقة. عشت في هذا القصر جزءًا طويلًا من عمري ومت فيه أيضًا، وها أنا أحوم حوله من جديد. كانت مسامات شجرة البانسيان ترشح حزنا كلما جلست قربها، أنقل إليها وحدتي، فتتساقط زهراتها الحمراء عند حواف ثوبي الطويل. ما زالت البانسيانة في مكانها، لو اقتربت منها الآن ستعرفني حين أهز أوراقها، وأردِّد ذات الكلمات التي كنت أحكيها في الماضي.

ثم جاء الأمير التركي الشاب من بلاده البعيدة ليأخذني معه، شابة يافعة في السابعة عشرة من عمرها. التقيت الأمير خلال إحدى الرحلات على سفينة انطلقت من ميناء الإسكندرية لتطوف في عدة مدن أوروبية،كنت برفقة أبي-أميرال البحر- وأختي ملك شاه، وتحت أضواء السفينة، رقصت للمرة الأولى مع الأمير، طفت بين ذراعيه، يحرك عواطفنا هواء البحر. قلبان غضَّان توهَّما الحب، لكن الحياة ليست رحلة مبهجة، والحلم المتخيَّل بالسعادة خلال رحلة بحرية، يختلف عن الحياة الواقعية في القصور.

تم أخذي من القصر العائم على ضفاف النيل، إلى قصر بارد على سفح جبل شاهق في الأناضول. هناك كنت أعيش بين جوقة من النسوة، أمهات، عمات، خالات، أخوات، جوار، مربيات. كنت عروسًا تعسة، لكني لم أدرك هذا الشقاء في البداية، انشغلت بالسفر والترحال، بالأشياء البراقة التي تحجب الرؤية الحقة. في جناحي غرف كثيرة مليئة بالدواليب التي وضعت فيها أشيائي: حلي ثمينة، أقمشة من الحرير، والمخمل، الساتان والأورغانزا والدانتيل، أثواب وقبعات وأحذية وحقائب، خمنت أنها ستمنحني الدفء، لكن كل هذا سيبلى بسرعة.

في القصور تحاك الدسائس والمؤامرات، ما يقال في العلن، غير الذي يتم تنفيذه في الخفاء. هناك من يبدو أنه الحاكم في الظاهر، لكن يوجَد غيره من ينفذ مشيئات أخرى في السر. وأنا وجودي كان مرهونًا بغرام زوجي بي، وهذا أمر عزّز الرغبة بكراهيتي.

"انضمت إلى قصر الأمير الكبير، عروس جديدة، أميرة مصرية شابة، أعجبت ابنه البكر فأصر على الزواج منها." كانوا يقولون.

وكأن كلماتهم ونظراتهم سهام تصيب جسدي. برد، برد يغزو أطرافي، فأصاب بالمرض. يسقط من رحمي جنين تلو آخر. تدور الهمسات عني بأني لا أنفع للإنجاب. أغرق في الحمى لأسابيع طويلة.

جسدي ممدَّد في الفراش، أعياني مرض شديد في عصب الروح. حولي خادمات كثيرات يراقبنني بكره، بجانبي مربيتي جلنار التي أتت معي من القاهرة.

لا أذكر إلا فراشًا ممددًا على الأرض إلى جانب موقد كبير. الثلج يتساقط نتفًا، يغطي رأس الجبل، لم أكن رأيت الثلج من قبل. في بلدي

لا توجد ثلوج كثيفة، تصيب المرء بالصقيع. مربيتي جلنار، تمسح جبيني بمنديل أبيض، تدفع إلى فمي جرعات من خليط مرّ تعده لي بيديها، تتمتم بالدعاء، ورقيات تحفظها غيبًا. تظنني لا أعي أسرار الكلمات المهموسة، التي تفوح في الخارج، وتصير نصلًا حادًا ينغرس في عنقي.

تقاطعات

ليل، سكون مخترق من أصوات تتسلَّل عبر النافذة، مثل موجات حائرة تشتد وتخفت حسب قوة المصدر الباعث، وهنا يبدو المصدر طاقة لا تجد لها متنفسًا صحيًّا، فتأتي على شكل عراك، وصخب، وزمامير سيارات.

أحس ناجي باشتياقه إلى السير قرب البحيرة. لو كان في الإسماعيلية الآن، كان سيمشي على الكورنيش بدلًا من العودة إلى البيت.

إنها الثانية بعد منتصف الليل، حرك ناجي سهم الكمبيوتر ليوجهه نحو أغنية فيروز: "إيه في أمل." يساعده الليل على الإحساس بحريته التي تتقلَّص في زحمة النهار، ثم تعود وتنفلش مع بدء ساعات المساء. راح يكرِّر كلمات الأغنية: "إيه في أمل." لو كانت بشرى هنا ستغني معه "إيه في أمل"، لكن تباعدها يستمر بين تقديم وتأخير، بحيث يقفان عند عتبة الحكاية، لا بداية، ولا انسحاب. هكذا سارت علاقتهما منذ التقى بها أول مرة حين كان برفقة علا- ابنة أخته- في أمسية عرض فيلم "مولان" في دار الأوبرا، لا يمكنه الحسم إن مضت أموره معها أبعد من لقاء مصادف في عرض سينمائي، إذ رغم تقاربهما الذي بدا له يقينيًّا في وقت ما، كانت أوقات التباعد كافية لتجعله يشكُّ في حقيقة كل ما يجمع بينهما. فلا هو قادر على المواجهة، ولا على التراجع.

فتح "السي دي" الذي أعطاه إياه محيي وراح ينقل محتوياته إلى سطح جهاز الكمبيوتر، ثم فتح مدوَّنته وبدأ في كتابة تدوينة جديدة، قبل أن يبدأ تحميل محتويات السي دي، يضعها على المدونة مثل قنبلة قابلة للانفجار، فتتتالى التعليقات على مشاهد العنف والتعذيب.

بعد ساعة أحس بالجوع، دخل المطبخ، وفتح الثلاجة الصغيرة التي تتساقط منها قطرات من الماء كلما تراكم فيها الثلج، أخذ بيضتين وحبة طماطم، وعلبة الجبنة البيضاء، سخن رغيفًا من الخبز الأسمر وهو يخفق البيض ويصبه في مقلاة صغيرة، قطع الطماطم إلى شرائح رفيعة ثم وضعها فوق البيض قبل أن يقارب الاستواء، ثم أخذ قليلًا من الجبنة البيضاء، فتتها بين يديه وألقاها على طبقه في خطوة أخيرة قبل أن ينتقل إلى الصالون. كان وجود عادل معه في الشقة يخفِّف عنه تفاصيل الحياة اليومية، لأن عادل الذي يهتم بالطعام بقدر اهتمامه بتأدية فروضه الدينية، يحرص دومًا على وجود شيء يؤكل في أي وقت، هذا عدا أمسيات الكباب والكفتة، والطرب والممبار التي تتكرَّر كل أسبوع، حيث يقهقه عادل وهو يقضم قطعة ممبار يسيل منها الزيت مردِّدًا عبارة "كلوا من طيبات ما رزقناكم"، كلما نصحه ناجي بأن يرحم نفسه.

نظر ناجي إلى بذلته الممددة على الكنبة، تناولها ظهرا من "المكوجي"، ولم يتسنَّ له إدخالها إلى الدولاب، فقد غادر البيت بسرعة بعد اتصال محيي. كان عليه النوم لساعات قليلة، قبل أن يتوجه في الصباح الباكر إلى الشركة الهندسية للحصول على فرصة عمل جديدة،

لا يعلق عليها كثيرًا من الأمل، لكنه مؤمن بضـــرورة المحاولــة. أحـــب دراسته لهندسة العمارة، وأن يحمل لقب "باشمهندس"، لكن كـــل هـــذا تلاشى بعد أولى تجاربه في العمل عقب تخرُّجه، حين اكتشف بعد أشهر أنه سيكون مساهمًا في تشريد عشرة آلاف مواطن. كان شريكًا في رسم عدة خرائط هندسية مرسومة بدقة ليتم تنفيذها واقعيًّا، وبنـــاء علـــى ذلـــك ستُهجَّر مئات العائلات من سكان إحدى المناطق القريبـــة مـــن النيـــل، وسوف تبني الشركة على الأرض مجموعة متاجر فخمة لتوكيلات عالمية، تحيط بها مبانٍ سكنية فاخرة بدلًا عن عشش الصـــفيح، والعشـــوائيات المتلاصقة. يومها حين ذهب لمعاينة الأرض واكتشف حجم البؤس الـــذي يعيش فيه الناس، أدهشته حالة الاستسلام واللامبالاة التي يتعاملون بهـــا، كانوا متقبلين لما سيحدث، لقناعتهم التامة أنه لا يوجد حل آخر، فمـــن سيستمع لأصواتهم! ومن وجهة نظرهم أن يأخـــذوا بضـــعة آلاف مـــن الجنيهات، كما وعدتهم الشركة، أفضل من أن يُطردوا مجانًا. كان هـــذا الحدث أول تجربة واقعية لإحساسه بالعجز ونفوره من مهنته، ومن علب الكبريت التي كان يبني منها بيوتًا، ومن لعبة المكعَّبات التي يتلـــهَّى بهـــا الأطفال، بدا له حينها أن العالم الخارجي ليس إلا لعبة مكعبات كبرى ثمة من له القدرة على تشكيلها وتدميرها على هواه. ترك العمل، بعد إحدى المناقشات مع رئيسه المباشر، المهندس الأكبر. تنقَّـــل في عـــدة مكاتـــب هندسية، تفاوتت نسب الفساد فيها، وخلال الأوقات التي يكون فيهـــا عاطلًا عن العمل يحمل كاميراته ويمضي لتصوير أفلام حقيقية، من قلـــب الحياة. كان التصوير بالنسبة إليه هو الفعل الأكثر إمتاعًا، أحب تصـــوير

المدينة بكل حالاتها، في الليل والنهار، في ساعات الغسق، والسحر، كانت تسحره الأبنية القديمة، والقصور المتهالكة، والعالم السفلي للقاهرة يغريه بالتوغُّل فيه بلا حذر، يلتقط مشاهد، يظن من خلالها أنه سيكتشف الوجه الحقيقي للمدينة، لكنه في كل مرة، يردِّد لذاته أن القاهرة مدينة لا يمكن لأي أحد أن يكتشف كل وجوهها، لأنها مكان يمكن حدوث أي شيء فيه مهما بدا مستحيلًا.

حين غادر البيت صباحًا، شم ناجي رائحة بشعة تتسلَّل من البراميل المثقوبة التي تندلق منها القمامة، بعد أن عبر ناجي من أمامها، بصق وسد أنفه. لا تدفعه رائحة القمامة لمثل هذا الفعل، لكن الرائحة هذه المرة بدت مثل رائحة جيف نتنة، دفعت لديه إحساسًا بالتقيؤ، فكَّر ماذا يوجد في تلك القمامة، من المؤكد أن فيها حيوانات نافقة، أو لحومًا فاسدة، وإلا ما صدرت منها تلك الرائحة التي يصعب احتمالها.

صعد ناجي في تاكسي ليذهب إلى شارع التحرير في الدقي، كان الجو خريفيًّا أميل إلى الحرارة منه إلى البرودة. محمد منير يغني عبر راديو السيارة أغنية "نعناع الجنينه"، تمتم مرات "نعناع الجنينة.." بصوت خافت، فيما سائق التاكسي يلوح بيديه ويشتم سائق ميكروباص مال على سيارته.

حين نزل ناجي من السيارة توجه بسهولة إلى العنوان الذي يبحث عنه، فقد كان مقر الشركة بارزًا على الطريق الرئيسي. لم يكن الجو منقبضًا حين قابله الموظف المسؤول كما يكون في المعتاد، استنتج أن

الشركة التي سيعمل بها تضم أعضاء من جنسيات عربية أخرى. المهندس الذي وجَّه إليه عدة أسئلة تتعلَّق بأماكن عمله السابق، وسنوات خبرتـــه، بدا لطيفًا إلى الحد الذي أثار الريبة عند ناجي. لكن في النهاية انضـــم إلى فريق العمل، وعرف خلال الأسبوع الأول أن الشركة تدير مشروعات سياحية ضخمة على ساحل البحر الأحمر، كما تبني مـــدنًا في القـــاهرة الجديدة. كان الشرط الأساسي في العمل أن يقبل السفر والإقامة خارج القاهرة، على أن يحصل على إجازة لمدة عشرة أيام كل شـــهرين. كـــان الراتب مغريًا، لكن فكرة الانتقال من القاهرة إلى منطقة معزولة شوَّشت ذهنه، هكذا سيصير عليه أن يقسم إجازته بين القاهرة حيث يتابع دراسته العليا في الجامعة، وبين الإسماعيلية ليزور أباه وأمه وأخته نجـــلاء، فقـــد تزوَّجت أخته رانيا واستقرت مع زوجها في القـــاهرة وأنجبـــت طفلـــة، وانتقلت ناهد إلى الإسكندرية بعد زواجها أيضًا، ولم يبق مع والديـــه إلا أخته الصغرى نجلاء التي رفضت الانتقال إلى القاهرة لمتابعـــة دراســـتها الجامعية، بعد مرض الأب وتدهور حالته الصحية. كـــان نـــاجي يحـــس بتقصير دائم نحو أبيه، ذلك الرجل الذي منحه الكثير، لم يعد قادرًا علـــى العطاء الآن. شحَّت ذاكرته، وشاخ جسده، لكن بالنسبة إلى ناجي مـــا يزال أبوه أكثر شخص أثَّر في حياته. علاقته مع أمه كان فيهـــا عاطفـــة فقط، عاطفة الأمهات الحانية، ربما لم يتحاور مع أمه حوارًا عميقًا وجادًّا إلا بعد مرض أبيه، حينها صارت تحكي لـــه الكـــثير مـــن التفاصـــيل والأحداث التي كان يسمعها من زاوية واحدة: زاوية أبيه. لم يكن هنـــاك فروقات كبيرة في مرويات أمه، وقصص أبيه، لكن ثمة رؤية مختلفة تلعب

فيها الذاكرة الأمومية دورًا مهمًّا في الموقف من الأحداث والأشـــخاص. تحكي له أمه أن أباه بعد أن عاد من حرب **1973**، ظل يحكي لأشهر عن عبور خط برليف، مذيلًا كلامه بعبارة "بس ماتصدقيش يا فاطمـــة إننـــا انتصرنا، احنا ما انتصرناش ولا حاجة." وحين كان أبوه يسرد له تلـــك الواقعة، يحكي – من وجهة نظر ضابط سابق– عن بسالة الجنود المصريين وبطولاتهم. فما وجهة نظر أبيه للحدث؟ وهل ما يحكيه لأمه كـــان إثـــر انفعال ما، أم أن تلك كانت رؤيته الحقيقية فعلًا؟

بعد مغادرته مقر الشركة، اتصل ببشرى وأخبرهـــا عـــن وظيفتـــه الجديدة، واقتراب سفره إلى الساحل الشمالي، ثم اقترح عليها أن يلتقيـــا مساء.

* * *

لبست بشرى ثوبًا خريفيًّا طويلًا، من قماش الكريب، تتداخل فيـــه عدة ألوان ترابية، وضعت حزامًا عريضًا عند خصرها، فبانت تفاصـــيل الثوب أكثر جمالًا على جسدها، تناولت من العلبة الصدفية، قلادة أمهـــا ذات الأحجار الكريمة الملونة، لبستها حول رقبتها فبدت منسجمة مـــع لون الفستان، كان لبشرى ذوق معين في اختيار ثيابهـــا، تهـــتم بنـــوع القماش، ودرجات الألوان، ربما لأن رغبتها في اللعب بالألوان تحضـــر في حياتها العملية عبر صور الرسوم المتحركة التي تحتاج للإبهار البصـــري في اختيار الألوان. كانت بشرى تدمج بين ألوان تبدو للوهلة الأولى غـــير

منسجمة، ثم يبدو جمالها، حين تتجاور. وضعت شالًا حريرًا أزرق حول كتفيها، ومضت.

قبل أن تغادر مدخل العمارة، التقت بأسماء، أخبرتها أن شهد ستأتي للمبيت معهما هذه الليلة، لأنها ستصور غدًا صباحًا إعلانًا وتخشى أن تتأخر في الوصول من مصر الجديدة إلى شارع الهرم.

"لا تتأخري، سأجهز دجاجة مشوية للعشاء." قالت أسماء.

حين غادرت مدخل العمارة كان صوت أذان المغرب يرتفع من مئذنة قريبة، ويتداخل مع صوت أغنية لعمرو دياب تصدح من المقهى المجاور. ركبت تاكسي إلى "شارع عدلي" في وسط البلد.

كان ينتظر بشرى في حديقة الجزء الخارجي من "جروبي"، جلس في الجانب الذي تظلله شجرة البانسيان، عيناه معلقتان على المدخل، حين اقتربت منه بشرى سلمت عليه بحرارة، كان بينهما فرح مشترك كلما التقيا.

- "ستسافر إذن؟"

سألته وهي تضع السكر في كوبي الشاي.

هز رأسه إيجابًا، وهو يقول:

"سأجرِّب، تجربة جديدة ليس إلا، إن كانت جيدة لا بأس، وإن لم تعجبني سأعود." ثم تابع كلامه في نبرة فيها إيحاءات مختلفة:

"سأفتقدك."

ردَّت بنظرات فيها شرود قليل: "وأنا كمان"، ثم قالت بجدية: "أفكر بالسفر إلى دمشق"

فاجأته عبارتها، فأردف بسؤالين "ليه، وإمتى؟"

"لا يوجد سبب محدد سوى ذاك النداء الملح بالسفر، سأحاول الحصول على إجازة من عملي في شهر ديسمبر، أي بعد شهرين من الآن، اشتقت للمطر."

كما لو أنه أحس بخيبة أمل، غطى عليها بعبارة:

"لكننا سنظل على تواصل."

"أكيد..."

قبل أن يغادرا "جروبي"، اشترت بشرى حلوى "المارون جلاسيه"، فتحت العلبة ثم قدمت لناجي قطعة منها، ثم تناولت واحدة أخرى بفرح ظاهر، وهي تقول له إن

"المارون جلاسيه" أجمل شيء يمكن الحصول عليه الآن حيث لا يوجد ألذ من مزيج الكستناء والعسل، وهما يغادران كانت تحكي لناجي عن ليالي الشتاء في دمشق، حين كانوا يقومون بشي الكستناء في فرن المدفأة المتوهِّجة، وصوت الريح في الدار يهز أغصان شجرة المشمش، وفروع زهر الياسمين.

حين سارا معًا، كانت ظلال الليل تنعكس علـــى المبـــاني القديمـــة، والمحلات المغلقة، سارا أمام المعبد اليهودي فبدا لبشرى كما لو أنه محمل بالأسرار. الشارع ما يزال مزدحمًا بالمارة، كانت تحب شوارع وسط البلد في الليل، لذا حين يكون ناجي برفقتها تفكر في الاســـتفادة مـــن ميـــزة حضوره معها، تمشي بحذر أقل مما لو كانت وحدها أو مع أسماء. ســـارا حتى وصلا شارع عماد الدين، لم يكن مزدحمًا، بل قديمًا وشـــبه وحيـــد. تحكي له عن إحساسها بالمكان، وعن سيرها هنا في زمن آخر، برفقة رجل أيضًا. تحكي وتصمت، وناجي يستمع بمحبة بلا تدخُّل يوقف حكاياتهـــا. كانا مثل غريبين في الليل، يتخليان عن أقنعتهما الضـــرورية، ويفرغـــان حمولة الروح، فيشعران بخفة تأتي منسجمة، مع نسمات الخريف، وضوء المصابيح الشاحب. حكى ناجي عن استعداده للسفر، عن مخاوفه، وعـــن احتياجه لبدايات جديدة..

ركب معها ناجي سيارة تاكسي كي يوصلها إلى البيت، دائمًا يصر على رفقتها حتى اللحظات الأخيرة. حين نزلت ظل هو في الســـيارة، لم يودعها، فقط لوحت له وهي تمضي، كما لو أن لا وداع بينهما.

* * *

رائحة التوابل السرية التي تستخدمها أسماء في إعداد الأطعمة، تسربت إلى أنفها عندما فتحت باب الشقة. كان الطهو من أكثر الأمور المبهجة بالنسبة إلى أسماء، تقوم به حين تكون غاضبة بشدة، وفرحة جدًّا،

حيث تتلاشى بالنسبة إليها متاعب الحياة أمام مائدة مجهزة بشكل جيد. كان لأسماء بشرة سمراء، عينان واسعتان بأهداب كثيفة، وجسد مستدير، لدن، بعظام شبه متلاشية خلف استدارات أنثوية بارزة. تحكي أسماء عن عملها في الجريدة، وعن رئيس التحرير المتلوِّن، الذي يلغي التحقيقات التي تعدها في اللحظات الأخيرة، بعد أن يكون كلَّفها بها، ثم يقول بشكل حاسم: "لازم نهدى شوية دلوقت.. وضع الجريدة ما يستحملش."

شهد تجلس في الصالة تحدق بالتليفزيون وتبرد أظافر يديها بمبرد خشبي، ترتدي ثوب نوم قطنيًّا أبيض قصيرًا، منقوشًا عليه فراشات من اللون الأحمر، كانت شهد النسخة المصرية من الفنانة الكولومبية شاكيرا، لها عينان مرحتان لا تستقران في حركتهما، وجلد رقيق يشبه بشرة الطفلات، جذابة بشكل ساحر، وهي تدرك تأثير جمالها القوي على البعض، وتحاول الاستفادة منه قدر الإمكان، لديها طموح أن تكون ممثلة، لكن هذا الطموح المدعوم بجمالها، يعوزه الموهبة والإصرار، ويبدو أن شهد كانت تفتقر إلى كليهما، وتزعم أن ما ينقصها فرصة جيدة فقط.

سارت أسماء نحو المطبخ، وتبادلت بشرى حوارات متنوعة مع شهد، تصب كلها في أحاديث الأخيرة عن طموحاتها الفنية، وأحلامها، بشرى تستمع لها بمحبة وإدراك أن ما تقوله شهد ينطوي في جزء كبير منه على وهم ستكتشف في وقت ما حقيقته، التي تبدو واضحة للجميع فيما عدا شهد، عادت أسماء تحمل طبقًا عليه دجاجة مشوية يرتفع منها البخار، وضعته على طاولة السفرة المستطيلة، ثم رمت تعليقًا ساخرًا حول كلام

شهد وهي تطلب منها مساعدتها في إحضار الأطباق، دخلت شهد إلى المطبخ وعادت وفي يدها طبق خزفي أبيض عميق فيه سلطة خضراء، وطبق آخر مسطح فيه كتلة دائرية من البطاطس البوريه، جلست الفتيات الثلاث حول المائدة، فيما قامت أسماء بتوزيع الأطباق والملاعق، وتقطيع الخبز.

* * *

لم تحبني نسوة القصر، كانت الأم تعمل على عزلي وإقصائي عن الحياة الاجتماعية، أخت زوجي الكبرى ساندتها بقوة، أما أخته الصغرى فقد تقبلتني أكثر ربما لأني في مثل عمرها لكنها لم تملك القدرة على إظهار تعاطفها معي، أقبع معزولة في جناحي لأيام، في مكان باذخ الترف وشديد البرودة. كانوا يبعدون زوجي عني، يشغلونه في أمور كثيرة، يحاولون إيهامه بضرورة سفره لغايات ما، وأني لا أنفع لمرافقته، لأني عنيدة وأقوم بتصرفات غريبة. كان الأمير قليل الكلام والبوح، حائرًا بين تصديقهم وتصديقي.

الحمى لا تفارقني، أظل نائمة في سريري لا أقوى على فعل شيء، وجوه كثيرة مثل الأشباح تحوم حولي. وجوه لا أعرف إن كانت حقيقية أو كنت أتوهم وجودها.

ولم يمر وقت طويل حتى سمعت زغاريد، وضحكات. فتاة يافعة أخرى تسكن في مخدع مجاور. تنام على سرير يشبه سريري. تضع ثياب عرسها في دولاب أكبر من دولابي. عروس جديدة للأمير الصغير. وأنا إلى متى سأظل نائمة في سريري؟ إلى متى سأظل غائبة أسمع بكاء مربيتي، وألمح منديلها الأبيض تمسح به دموعها وجبيني.

في الربيع، استيقظت على اللون الصدفي للفجر. لم أكن بردانة. كنت جائعة بشدة. شربت كوبين من الحليب، تناولت العسل وخبزًا طازجًا سميكًا. نظرت في مرآتي، كان وجهي صافيًا، وجسدي قويًّا.

حين غادرت فراش مرضي، أمرت الخادمات بإحضاره إلى فناء القصر، وطلبت منهن إحراقه. أحرقت فراش مرضي، على تلك الأرض الغريبة. أحرقت ما تساقط من خلايا مريضة من جسدي. خلايا تأكل العافية. كنت مضطرة لفعل هذا، كي لا تشدني تلك الخلايا للسقم من جديد. كان عليَّ إحراق جزء مني، لأنقذ الجزء الآخر، قبل أن أمضي بعيدًا نحو جذوري الأصلية.

هنا لا جذور لي. ولن تكون.

وكما الماء سر الحياة، هبة سماوية تسيل من الأجساد لتمنح النشوة والخصب؛ تلتهم النار السقم والألم، تجعل الوجع رمادًا. أحرقت النيران فراش سقمي، وبان في عيني لهيب قوتها، عندما أصررت على السفر، قلت إني أريد زيارة أهلي. زوجي الأمير الصغير منشغل بعروسه التي انتفخ بطنها، شعرت بالعطف نحوها، لأنها كانت تشعر بالخجل كلما مرت بجانبي.. أما زوجي وزوجها، ذاك الأمير الصغير والوسيم، سأحكي عنه فيما بعد.

* * *

لا أحد يملك الإجابات على الأسئلة. الأسئلة الحقيقية حارقة مثل ماء الكلور المركَّز، الذي شربته وهي طفلة، ظلت آثاره تحرق فمها، يوم ظنت أنه ماء، وما إن وصل إلى سقف حلقها حتى اشتعلت النيران فيها،

قبل أن تبصقه بعيدًا، وتبدأ في غسل فمها بماء نقي. لم تبتلعه، لكن طعم السائل الحارق، ما زال عالقًا في ذاكرة حواسها، بكل قسوة اللحظات تلك.

الأسئلة التي تشتعل في ذهن بشرى الآن، تشبه في حرقتها لحظة احتراق فمها بسائل الكلور، لكن هذه الأسئلة لا تستطيع أن تبعدها عن ذهنها أبدًا، الصور تتجاور لتصير حكاية، والحكاية تكبر، وتتسع لتغدو حياة مجهولة، لامرأة لا تعرفها لكنها تحس بها، وبوجودها، وحياتها، كما لو أنها عاشتها معها..

وجه "نورجهان"، يحتل مخيلتها، يسكن أيامها، بل إن الأمور تزداد سوءًا لأنها صارت تبصر أجزاءً من ماضيها البعيد، من حكايات صباها المشروخ. تراها ممددة في فراش غريب على الأرض، ذاك المكان الذي رأتها غافية فيه لم يكن قصرها المجاور لضفة النيل، بل مكان فيه وجوه كثيرة، وأسماء مجهولة، وفي غرفة واسعة، ترقد تلك المرأة التي صارت تعرفها جيدًا. شاهدتها بوضوح أول مرة حين كانت تجلس في شرفة قصرها، وتدخن سجائرها بعصبية، وهي تكتب على دفترها الصغير، وخادمتها تروح وتأتي بالقرب منها.

في مشهدها الجديد ليس معها خادمة واحدة، بل تحيط بها خادمات كثيرات، وسيدة في الخمسين أو أكثر تعتني بها، وتهتم لأمرها، وتشجعها على النهوض ومقاومة المرض، سيدة تجمع لها ندى النباتات عند الفجر، وتمزجه بمسحوق غريب، قبل أن تضعه في فمها، لكنها لم تكن قادرة على

الحراك، سائل أحمر يلطخ ثيابها. ظلت تنـــزف أربعين يومًا. ما إن تقــف على قدميها حتى يتدفَّق من جسدها سائل يأخذ كل عافيتها، ويتركها من دون أي قدرة أو رغبة بالحياة.

فجأة، تحس بشرى بسخونة وحرارة بين ساقيها، ترى قطرات مـــن الدم تلوث سريرها. تسحب الملاءة المتسخة، وتسير بسرعة نحو الحمام، تضعها تحت الماء، تنـــزع ثيابها وتقف في حوض الاستحمام. هل هذا دم عادتها الشهرية، فاجأها في وقت مبكر عن موعـــده؟ أم أن الاضـــطراب وصل بها حد الخلل الجسدي والنفسي؟

أسئلة، أسئلة حارقة، لا تؤدي بها سوى إلى مزيد مـــن العـــذابات. تركت ماء الرشاش ينساب على جسدها. تبل الليفة بالمـــاء الســـاخن، تفركها بصابونة عطرة الرائحة، رغوة الصابون تعبق بالحمام. تـــذكرت صابون الغار الذي كانت أمها تفضل الاستحمام به، خاصة حين تذهبان معًا إلى حمام النساء في "باب توما." تفوح رائحة صابون الغار من جســـد أمها، ممتزجة مع رائحة زيت الفل الذي واظبت أمها على دهن جســـدها به لسنوات. في يوم غُسلها، فاحت من جسدها الـــبض رائحـــة فـــل، مساماتها أعادت إفراز تلك الرائحة التي اختزنتها لأعوام.

كانت أمها تجد متعة كبيرة في "يوم الكسل والماء الســـاخن" كمـــا تصفه بشرى.

في حمام النساء تحكي الأم عن غربتها، عن شوقها إلى بلدها، تبــوح بأسرارها لجارتها العراقية ساجدة (أم شوقي) التي ترافقهما غالبًا إلى حمام النساء، الذي يفصله عن العالم الخارجي بوابة صغيرة مقنطرة تشبه بوابات حكايات الجان، ذات مقبض ضخم من النحاس، وفي منتصــف البوابــة مجسم صغير يمثل أسدًا تظهر أنيابه بوضوح. ما إن تدلف برفقة أمهــا إلى الداخل، حتى تشاهد النساء اللواتي انتهين من الحمام، شبه عاريــات في الصالة الفسيحة، يشربن الشاي والأرغيلة، ويلففن أجسادهن بمناشــف كبيرة، أما الأخريات اللواتي يستعددن للبدء بطقوس الاستحمام، يكــن منهمكات في نزع ملابسهن، وتجميع أغراضــهن في مكــان مناســب، وتسليم الأشياء الثمينة من مصاغ ومال لصاحبة الحمام الــتي تضــعها وراءها في صندوق الأمانات.

تدعك بشرى جسدها، يصير لونه ورديًّا، تستمر في فركه كما لــو أنها تريد التأكد من حقيقته. رعشة برد، تداهم أطرافها، تزيد من ضــخ الماء الساخن حتى تكتفي منه.نشفت جسدها، وارتدت ثيابًــا نظيفــة. لاحظت أن الماء الساخن أبعد أسئلتها قليلًا إلى مكان آخر، وأن ذكريات حمام النساء بدَّلت حالتها المزاجية.

في الغرفة غمرها إحساس بالحرية، بالرغبة في السير طويلًا.

أرادت المشي قرب الكورنيش في شارع المنيل الرئيســي. قبــل أن تغادر البيت دخلت غرفة أسماء وأخذت غطاء للرأس، لفَّــت شــعرها بمنديل خوفًا من البرد، ربما لهذا السبب لم تحس بالاختلاف، لأن غطــاء

الرأس يحجب شعرها ويجعلها متشابهة مع كثير من الفتيات اللواتي يمشين في الشارع بزي حديث جدًّا يواكب الموضة، ويضعن غطاء الرأس، فــلا يمكن وضعهن في أي تصنيف إن كن محافظات أو يتبعن الموضة، فمن جهة هن يغطين شعورهن، ومن جهة أخرى يرتدين ما يروق لهن، وفي الغالب يتنافى ما يروق لهن مع غطاء الرأس. لذا حين لفَّت شعرها المبلول بمنديل أزرق موشًّى بخيوط بنيَّة، بدت متشابهة معهن، هي أيضًا ترتدي بنطالًا من الجينــز ، وجاكيت صوفيًّا أزرق، وتسير بوجه خال من المســاحيق. لا يميزها شيء عن أي فتاة أخرى تمشي في الشارع. مــع مــرور الوقــت اكتشفت أنها الفتاة الوحيدة غير المحجبة في العمارة التي تسكنها، وأنها في المرة التي قرَّرت فيها شراء شجرة الميلاد، باعها لها البائع الــذي يــدير شريط القرآن من دون أن ينظر لها، لكن حين دخلت المبنى الذي تسكن به وسارت خطوات نحو المصعد وهي تحمل الشجرة، قالت لهــا إحــدى الجارات: "كل سنة وانتي طيبة." ردَّت على الجارة بابتسامة من دون أن تخبرها عن هويتها الدينية، وأنها اعتادت شراء شجرة الميلاد كل عام منذ صغرها، لأن أمها التي أجهضت لمرات متتالية قبل أن تحمل بها، نــذرت بناء على نصيحة جارتها المسيحية أم مارون، أن تقدِّم نذرًا في الكنيســة المريمية في "باب توما"، إن أتمَّ الله حملها بسلام، وأنها اتفقت على تســمية المولود "نور"، إن جاء صبيًّا، "وبشرى" إن كانت بنتًا.

لم تحك هذه التفاصيل لأي أحد، تلك الحكايــة تخصــها وحــدها، وتعتبرها سرها الخاص، في حقيقة قدومها إلى العالم. كانت أمها تعيد سرد تلك الحكاية، تأكيدًا منها أن الله يسمع دعاء البشر حين يقصدونه مــن

أي دين أو ملة. الأم وهي تحكي كانت تستعيد تلك الـذكرى بقدسـية لحظاتها، حين توجَّهت إلى الكنيسة المريمية، في يوم شتائي بارد، ولم يكـن هناك أي أحد في الكنيسة، لم يكن يوم صلاة، طلبت من الحارس أن يفتح لها الباب، وأمام صورة السيدة العذراء وحدها كانت تبتهل في القاعـة الشاغرة، غمرتها الرهبة حين رأت صورة يسوع المصلوب، وإلى جانبـه صورة أمه مريم العذراء، كانت الشموع مضاءة عند المـذبح، اختـارت مكانًا قريبًا، وجلست ثم فتحت المصحف الذي وضـعته في حقيبتـها، قرأت سورة مريم، ودموعها تسيل، كانت تتوقَّف عن القراءة بين حـين وآخر لتبتهل بالدعاء بصوت مسموع، ظنًّا منها أنها وحدها في المكـان. لكن حين انتهت من القراءة، بعد أن ذابت الشمعة التي أشعلتها، كـان حارس الكنيسة يقف عند الباب الخشبي الكبير، ويبدو على وجهه التأثر الشديد. خجلت ولم تنظر نحوه، وضعت نقودًا في مكان النذور ومضت، قبل أن تغادر فناء الكنيسة، شاهدت تمثالًا متوسط الحجم لقديسة ترتدي السواد، وتلف رأسها بحجاب أبيض، قرأت قـرب التمثـال عبـارة: "القديسة ريتا– شفيعة الأمور المستحيلة." في تلك اللحظة انتبهت نبيلـة أنها ترتدي أيضًا الأسود والأبيض مثل ثياب القديسة، تمتمـت بـدعاء مقتضب، لأن عباراتها ودموعها نفدت عند المذبح في داخل الكنيسة، ثم خرجت مبتعدة.

كانت الأم وهي تحكي "لبشرى" تلك الحكاية تختمها بعبارة أنهـا لا تعرف إن كان دعاؤها قُبل ببركة مريم العذراء، أم ببركة القديسة ريتا– شفيعة الأمور المستحيلة."

ستشاهد نبيلة الحارس مرة أخرى حين ستعود إلى الكنيسة، بعد أن تضع حملها، ومعها طفلة عمرها ثلاثة أشهر، ستشعل شمعتين، وتوفي بنذرها، سيبتسم لها الحارس بمحبة، ويقول لها: "العذرا ما بترد حدا."

عبرت بشرى شارع المنيل الرئيسي مقابل سينما "فاتن حمامة"، ثم انعطفت إلى اليمين لتسير في شارع "الملك الصالح." تأملت نهر النيل الذي يرتفع منسوبه هذه الأيام، أحست برهبة وهي تتذكر فكرة "عروس النيل" التي يتم دفعها نحو المياه الجارية بقوة، كي يبتلعها النهر، ويمنح الخصب، ويمنع الأذى. هل كانت يومًا ما عروس نيل، كي تخيفها الفكرة إلى هذا الحد؟ هل هناك من يقف وراءها الآن ويدفعها للغرق؟

شاهدت على يسار الشارع كوبري حديدي، يمر النيل من تحته، ويصل الكوبري الشارع الفرعي، بالشارع الكبير الذي يؤدي إلى المعادي. في وسط الكوبري توجد أربعة أقواس مرفوعة على أعمدة خشبية قديمة، وتعتلي الأقواس قبة دائرية مفتوحة الأضلاع.

قبل أن تصعد الدرجات الحديدية لتقف في وسط الكوبري، شاهدت امرأة ترتدي عباءة سوداء رثة تشوي الذرة على الأرض، بجانبها امرأة أخرى شابة، تحمل بين ذراعيها طفلًا رضيعًا. صعدت السلالم المتسخة بالتراب وأعقاب السجائر وأكياس الشيبس والحلوى، وبقايا السندويشات ومناديل الكلينكس.

وقفت في منتصف الكوبري، بدا لها النيل مهيبًا في جماله وقوته. عند ضفافه مشاتل صغيرة تمتد قــرب أشــجار الصفصــاف، والبانســيان، والبومبكس، والنخيل، و الموز العريضة التي تتدلَّى أوراقها فتكاد تكــون ملامسة لمياه النهر. ظلَّت في وقفتها تلك برهة من الزمن. رافقها صــوت تغريد العصافير الكثيف وهي تمضي عائدة، صفحة النيــل علــى يمينــها يحركها هواء خفيف، الشارع فيه شحوب تضاعفه الحنــاءات أشــجار البانسيان والجاكرانتا، يشوه هذا المشهد تل صغير من القمامة بالقرب من أحد الأبنية المتلاصقة بشكل عشوائي. سحبت نفسًا عميقًا وهي تقــف عند الكوبري الخشبي، وعلى مقربة منها وقف شاب أسمر برفقــة فتاتــه يتبادلان نظرات حب، ويرتفع ضحكهما المكتوم.

تناولت بشرى هاتفها من حقيبة يدها وقررت الاتصــال بنجيــب القاضي وزيارته في الحال، أرادت أن تكون مع أحد ما يهتم لأمرها.

* * *

كان يتسلَّل إلى غرفتي بين يوم وآخر.

في العتمة، وسط هذيانات الحُمَّى، كنت وحدي. يد مرتبكة ترفع الغطاء عني، ظل شحيح من القنديل ينعكس على وجهه، إنه زوجي الأمير، يحمل تلهُّفه في عينيه، وحركات أصابعه تنــزع ثيابي برفق شديد. قلبي يضرب بعنف، كنت متعرِّقة، وكان ليديه رائحة ماء الورد والتبغ، صوت البرق يدوي في الخارج عنيفًا، جسده بارد، يبحث عن حرارة جسدي، فكَّ ثوبي الصوفي الطويل، نزع ردائي القطني، وسروالي الداخلي، وفك حمالة صدري.

كنت عارية تمامًا، حين ألقى بعباءته على الأرض إلى جانب فراشي، ونام قربي. ظل معي حتى ساعات الفجر.

استلقى إلى جانب جسدي عاريًا، جسده نحيف، بلون الحنطة الذهبية، جذعه مستقيم، ساقاه طويلتان تتجاوزان ساقي في الفراش. استند بمرفقه الأيمن قرب وجهي ومرَّر سبابته اليسرى على شفتي الجافتين، مسح شعري بيده، وشدني إليه. ربما طلبت الماء حينها، سقاني، وراح يمسح وجهي وشعري بمنديل مبلَّل بماء الورد والزعفران. فتحت عيني، تشابكت نظراتنا بشهوة، كان يأخذ حرارتي، وكنت أمتص برودته. يمر بأصابعه الرقيقة على فخذي وبطني، يتحسَّس صدري، يعضُ أذني، وذقني، ويقبِّل شفتي بلهفة، يلثم حلمتي وبطني ببطء قبل أن يلجني بقوة، حينها أتداخل معه وأجذبه إليَّ، تدبُ القوة في جسدي الضعيف فألفُ ساقيَّ حول جذعه، وتشتبك ذراعاي بذراعيه، يظل غافيًا على صدري في تلاصقنا ذاك، متدثّرين بالأغطية حتى نغفو، ثم يستيقظ كالملسوع، كي يكشف الغطاء عني، ويمسح جسدي مرة أخرى بماء الورد، ويلبسني ثيابي بتأنٍّ، قبل أن يرتدي صدريته القطنية، وباقي ثيابه، ويلفَّ جسده بالعباءة الصوفية، ويمضي إلى مخدعه.

"الأمير الصغير، يتسلل ليلًا إلى فراش زوجته المريضة، ستصيبه عدوى المرض، حين يمتزج ماؤه المعافى، بمائها المعلول"

تبادلت نسوة القصر البارد، الهمس سرًا.

"انظروا... الأمير الصغير وجهه أصفر، وعيناه غائرتان، وجسده يزداد نحولًا يومًا بعد يوم."

كان همس النسوة يرتفع، ولم يتأخَّرن عن إبلاغ الأم، كي تجد حلًا لابنها وتصرفه عن زوجته المريضة التي يهيم بها. أحضرت الأم عروسًا جديدة لابنها، فتاة تركية ثرية من أقاربه، إنها شابة غضة، معافاة، جميلة، ستمنحه الذرية من رحمها الخصب، تعوِّضه عن الأجنَّة الذين ماتوا في رحمي النازف.

بعدها، غاب أميري، لم يعد يتسلَّل إلي في العتمة.

ذات مرة، وعيت قبل الفجر بقليل، كان يهمس باسمي، ويبكي، بلَّلت دموعه صدغي، لكني لم أتحرَّك، لم أفتح عيني، لم أنظر في عينيه. كنت أعرف أني لن أرى فيهما سوى ندم مكبوت. أصاب جسدي الخرس نحوه. كلما حاول رفع غطائي، صدرت عني همهمات تأمره بالتوقُّف.

هل أحببته، لا أعرف. لكن بعد عودتي إلى قصري الذي تطفو شرفته على النيل، عرفت حبًّا حقيقيًّا. حب يلامس شغاف القلب، لا يشبه حب الأمير ولمساته المرتبكة.

ظلال وحكاية

في بيت نجيب القاضي، تنساب موسيقى عبد الوهـــاب، وفريد الأطرش، وأم كلثوم، مـــن غرامـــافون قـــديم، لم يتمرَّد، ولم يستسلم بعد لقوانين الزمن التي تفرض إحالته للتقاعد. كل ما في تلك الشقة، يرتبط بزمن ماض،

السقف المرتفع، أبواب البلكونات، الشبابيك العالية، الســجاد الــذي يوحي بفخامة عتيقة، الستائر التي تحجب الأنوار وتجعل البيت مفصــولًا زمنيًّا عن الشارع. أما الحائط الذي علق عليه نجيــب صــورًا لفنـــانين وفنانات بعضهم رحل، وبعضهم توارى بسبب الســن، فكــان أكثــر التفاصيل التي تكشف ارتباط ذلك الرجل بزمن انتهى.

لكن حين تجلس بشرى، مع نجيب القاضي على بلكونة صالون بيته التي تطل على الشارع، تحس كما لو أنها تقف على حافة زمنين، زمنـــها الحالي عن يسارها في الشارع حيث الضــجيج، وصــوت الســيارات، وصخب المارة، والشتائم المتبادلة بين شابين يتشاجران، ويحاول آخـــرون المباعدة بينهما، فيما هما يواصلان تبادل التهديد والوعيد، نسوة يعــبرن الشارع، منتقبات أو محجبات، وصاحب المقهى الــذي يجلــس علــى الرصيف ينقل بصره بينهن، وبين شاشة التليفزيون التي تنقل مباراة كرة القدم. وعن يمينها زمن آخر مضى، عالم هادئ، ترتفــع منـــه أغنيـــة أم كلثوم: "رق الحبيب." وقبالتها يجلس رجل لديه الكثير مـــن الحكايـــات

والأسرار، يشرب الشاي الأسود الثقيل ويدخن الشيشة. حكى لها في جلسة سابقة، عن زوجته التي عاشت معه ثلاثين عامًا، لكنهما لم ينجبا أبدًا، ووصف تلك الزوجة بأنها كانت "طيبة وفي حالها." لم يبد على نجيب أنه آسف على عدم الإنجاب، بل قال لها إنه لم يفكر في الزواج مرة أخرى أبدًا بعد موت زوجته من عشرين عامًا. أخبرها أن السياسة أكلت دماغه، وأن سنواته في المعتقل جعلته يحمد الله لأنه لم يرزقه بالعيال. كان يقول "حكمة.. والله حكمة.. مش حعرف أربيهم أبدًا.. وأنا يوم هنا ويوم ورا الشمس."

تسأله بشرى وهو يسحب أنفاسًا من الشيشة، وينظر إلى الشارع:

"عمو انت بجد قريب ماما؟"

يبتسم الرجل، ثم يضحك فيهتز كرشه مع صوت قرقرة الشيشة، ويقول:

"قرابة من بعيد."

ثم يتابع كلامه:

"أنا كمان من طنطا زي مامتك، بس جيت هنا لما كان عمري **19** سنة، جيت أجري ورا حلم السينما، في الأول مامتك كمان كانت بتجري ورا الحلم نفسه، بس هي كانت عايشة هنا من زمان، أبوها جاه من البلد، واستقر في مصر... نبيلة، الله عليكي يا نبيلة.. نبيلة كانت

حب حياتي يا بشرى، تعرفي يعني إيه حب حياتي، كـــان يكفـــيني إنهـــا موجودة في الدنيا.. ربنا يرحمها."

تسيل دمعتان من عينيه، فيبدو مثل طفل صغير تائه. غمرها تعاطف كبير نحوه، كما لو أن حزنه على رحيل أمها فاق حزنها هي. لأنها لم تكن تصدق أن هذا النوع من مشاعر الحب موجود في الحقيقة، وأنها ستشاهد وتسمع في يوم ما رجلًا في السبعين يحكي عن رحيل حبيبته، التي لم يعرف كل تفاصيلها، كما لو أنه عاش معها عمرًا بأكمله. كانت ترى أن أفكار الحب هذه مثالية بشكل فائض، وأنها مأخوذة من الأفلام العربية القديمة، لكن رغم كل ما تفكر به، كان الألم الذي بان في عينيه وملامح وجهـــه، ينفي أي أفكار ثابتة في داخلها. لا تعرف هي تمامًا، ما المقصود بكلمـــة "حب حياتي"، لأن تجربتها في الحياة لا تتضمَّن مثل هـــذه الأحاســـيس. زواجها من ناصر لا يمكن وصفه "بحب العمر"، وعلاقتها مـــع نـــاجي لا تدري إن كان فيها حب.

قام نجيب إلى الداخل، ونادى على بشرى، في الممر المعـــتم قليلًـــا، توجد غرفة جانبية، فتح بابها ففاحت منها رائحة الأشياء العتيقة، مـــا إن أضاء النور، حتى وجدت أن الغرفة تحتوي جدرانها على ملصقات أفـــلام عربية قديمة، وفيها مكتبة كبيرة، وفي جانب الغرفة مكتب صغير، عليـــه آلة طباعة، وبعض الكتب والمجلات، والأوراق. اقترب من المكتبة، فـــتح الجزء السفلي المغلق، وتناول منه أفيشات أفلام مطوية، اصفرَّت أطرافها

قليلًا، ناولها لبشرى، ثم أغلق المكتبة، اعتدل في وقفته وهو يشير نحوهـــا قائلا: "هنا مستودع ذاكرتي."

في الصالون، أمام طاولة السفرة، كان يفرد أفيشات الأفلام القديمة، الصور تتمدَّد أمام عينيها، عبد الوهاب في فيلم "الوردة البيضاء"، فريـــد الأطرش وفاتن حمامة وماجدة على أفيش فيلم "لحن الخلود"، صورة ليلى مراد وأنور وجدي، على أفيش فيلم "الهوى والشباب." صور كثيرة من أزمنة مختلفة، من بداية الأربعينيات حتى نهاية السبعينيات.

بين أفيشات الأفلام الكثيرة، شاهدت صورة أمها، إلى جانب فنـــان مشهور مضت أعوام على رحيله. لم يكن اسمها نبيلة على أفيش الفـــيلم، كان لها اسم آخر.

"دي مامتك، مثِّلت دور مهـــم في الفـــيلم ده... بـــس خســـارة ماكملتش."

لم تكن بشرى ملمَّة بتلك المرحلة من تاريخ أمها، لأن كل التفاصيل التي باحت بها بشأن علاقتها بالفن، كانت مبتورة، وغير واضحة، لم تحك سوى قبل رحيلها بأسابيع عن شجارها مع نادية لطفي، وعلاقتها مع هند رستم وعن... وعن... لكن بشرى لم تكن تصدقها، ظنت أن أمها بدت عليها أعراض شحوب الذاكرة واختلاط الأشياء.

لم يسترسل في حديثه عن مرحلة الفن في حياة أمها، بل كان يطوي الأفيشات ليعيدها إلى مكانها وكما لو أنه يطوي تلك القصص أيضًا، لكن بشرى أرادت استدراجه للحديث فسألته:

"وانت جبت الأفيشات دي ازاي يا عمو؟"

"كنت بجمعها من زمان، لكن في أوائل الثمانينيات، بدأ الفيديو في الانتشار، قبله كانت السينما تحتفظ بصور الأفلام لأنها كانت بتعيد عرضها كل أربع أو خمس سنين، مافيش قنوات أفلام تكرِّر عرضها، وبعد الفيديو أفيشات الأفلام صار مالهاش لازمة."

وقبل أن يواصل طي الصور وأخذها إلى الغرفة السرية، سحبت بشرى الأفيش الذي عليه صورة أمها، لكن نجيب استوقفها بحركة من يده وهو يقول:

"يمكن أديها لك كلها بيوم من الأيام.... سيبي نبيلة معاهم، أنا بفكر أعمل هنا في بيتي معرض مجاني للصور دي... أنا عندي ذاكرة السينما في الغرفة الصغيرة."

سارت وراءه وهو يدخل الغرفة الجانبية، ويعيد وضع الصور مكانها. نظرت إلى الأفيشات المعلقة على جدران الحجرة، برقت في ذهنها صورة أمها الغافية في العالم الذي أحبته. كانت تفكر لماذا لم يعلق عمو "نجيب" صورة أمها، على الحائط إلى جانب باقي الصور؟ هل لأنه لا يريد مواجهتها في كل وقت؟ أم لأن أفيش ذاك الفيلم يذكره بحدث لا يود

تذكره؟ لم تتجرأ على طرح هذا السؤال عليه، لأنها أدركت بحدسها أن ثمة الكثير مما لم يقله، ولن تعرفه أبدًا.

حين عادا إلى الصالون، ساد صمت بينهما للحظات، قطعه نجيب القاضي بسؤالها إن كانت تلتقي مع ناجي، مردفًا بعبارة: "الولد ده كويس جدًّا"، وكما لو أنه يعطيها إشارة للكلام، هزَّت بشرى رأسها بالإيجاب قائلة: "آه عارفة، هو كمان بيحبك جدًّا، ولو عرف إن عندك الصور دي كلها حيكون عندك من بكرة الصبح، إنت عارف إنه بيحب التصوير جدًّا."

"مين عارف.. يمكن أديها لكم كلها بيوم من الأيام"، ثم انعطف في كلامه نحو موضوع آخر مذكرًا بشرى برحلة الفيوم قائلًا: "والله عايزين نروح الفيوم تاني."

ردت بشرى "آه يا ريت"، مرت تفاصيل الرحلة بسرعة في ذهنها مع إحساس بالفرح، يومها اصطحبهم نجيب القاضي هي وأسماء، وشهد، وناجي، أمضوا يومًا طويلًا من الصباح حتى آخر النهار، شاهدوا شلالات الفيوم، ثم تناولوا غذاءهم من الأسماك المشوية في كوخ من الخوص يطل على بحيرة قارون، منذ ذاك اليوم تقارب ناجي مع أصدقائها، ترك انطباعًا إيجابيًّا لديهم جميعًا، وصار من الطبيعي أن يجتمعوا معًا في كثير من الأوقات.

* * *

في طريق عودها إلى البيت، تذكرت تفاصيل صغيرة ماضية. صوت أمها العذب، حلاوة رقصها، زغردة ضحكاتها، خفة حركتها، وجمالها الذي يفيض على كل ما حولها. كيف لم تخمِّن أنها كانت نجمة، وأن جزءًا من تلك النجمة خبا بعد موت نورس، الولد الذي أنجبته بعد ولادة بشرى بعشرة أعوام، مات نورس قبل أن يتم عامه الثامن. كانت تسمع الجارات وهن يصفن أمها بأن "حبلها عزيز"، أي أنها لا تحبل بسهولة، إذ بعد زواجها تأخَّرت في إنجاب بشرى لمدة ثلاثة أعوام، ثم وقعت في إجهاضات متتالية قبل أن تنجب نورس. مات نورس في حمَّى مفاجئة وترك في قلب العائلة الصغيرة نصلًا حادًّا من الحزن. عادت الأم لارتباطها الوثيق مع بشرى، ذلك الارتباط الذي ظل مستمرًّا طوال عشرة أعوام قبل ولادة "نورس"، وخفت قليلًا مع انشغال الأم بالصبي، وتفتح بشرى على عوالم الصبا. لم يكن حزن الأب على فقد ابنه أقل من حزن الأم، لكنه كان يكتم انفعالاته مرددًا عبارة: "الله أعطى، والله أخذ." ربما كان رحيل أخيها الصغير، السبب القوي في بداية مرض الأب بالسرطان في العظام، ربما الحزن الكبير الذي كتمه دمر خلاياه وبث فيها المرض.

حين مات نورس، كانت جدها شامية، والدة أبيها، قد تجاوزت الثمانين من عمرها يومها صرخت أمها الثكلى بأعلى صوتها: "معقول عزرائيل ياخد ابني ويترك شامية"

الجدة العجوز، شهقت أيضًا من البكاء، وكانـــت تـــردد بصـــوت خافت: "يا ريت عزرائيل أخد روحي وترك نورس."

جنين وشعلة

عند عودتها من عملها في شركة تعد رسومًا متحركة للأطفال، كانت جائعة بشدة، لم يكن في الثلاجة سوى بقايا طعام بائت لم تتحمَّس لتذوُّقه، تناولت من الثلاجة عدة أنواع من الخضراوات: جزر، طماطم، فاصوليا،

بازلاء، وفلفل أخضر وأحمر، فتحت حنفية الماء وتركته ينساب ليغطي الخضراوات، اتصلت بأسماء لتنبهها أن لا تتناول الطعام في الخارج، لأنها ستعد طعامًا صينيًّا. انتشرت رائحة الزنجبيل المقلي بالزيت، أحست بشرى بخدر لذيذ وهي تقطع الجزر إلى شرائح رفيعة، أضافت البازلاء إلى الزنجبيل، ثم الجزر وباقي الخضروات، رفعت درجة حرارة النار، ثم راحت تنقي الأرز لتطبخه إلى جانب الخضراوات.

تعلَّمت بشرى الطهو بعد زواجها من ناصر، لم تكن تحب الطهو ولا الأعمال المنزلية، لكنها ظنَّت أن حرصها على إعداد مائدة مشتركة يتناولان فيها ما تطبخه بيديها سيكون وسيلة تعزِّز تقاربهما، لكنها اكتشفت بعد أسبوعين أن زوجها لا يحب الطعام المنزلي، ويفضل عليه الأطعمة المعروضة في الشارع. في البداية شاركته طعامه، لكنها لم تتمكَّن من مجاراته طويلًا، وعادت لقواعدها الغذائية التي كان يسخر منها بأنها تشبه طعام المرضى، لكن في أيام أخرى كان ناصر يستيقظ من النوم صباحًا ليقول لها: "مشتاق لفطار بيتي، فول وبيض وجبنة ومربى." لم يكن

بإمكانها ذلك الوقت إدراك أن ناصر يقاوم تعلُّقه بها، وما تمنحه له من دفء البيت، وحميمية الحياة المشتركة، كان يخشى الفقد لأنه اعتاد على فرديته، فبعد موت أمه وتشتت عائلته، صار عنده رهاب الارتباط، يخشى أن يؤذيه أي تورط عاطفي. لذا كان يُعلي من شأن الرغبة، على حساب العاطفة. كل الأحاسيس عنده قابلة أن تترجم إلى جنس، وهذا ما لم تتمكَّن بشرى من استيعابه، كلاهما لم يدرك أن لكل منهما حكايته وأوجاعه التي يصعب على الآخر مساعدته على الشفاء منها.

حين تزوَّجت ناصر، لم تأخذ معها الحقيبة الكبيرة التي أحضرتها لها أمها من دمشق. حقيبة جهاز عرسها. الشقة التي سكنتها معه في "مدينة 6 أكتوبر"– لسبب ما– لم تكن الشقة التي حلمت أن تفرش جهاز عرسها بها، كانت شقة باردة، غرفها متسعة وتميل إلى الظلمة تركت إحساسا بالخواء عند بشرى، ولم تنجح محاولاتها وضع لمسات فنية على الأثاث والديكور في تشكيل ألفة مع المكان، بل ظلَّت تقاوم حدسها الهامس بأن وجودها في هذه الشقة مؤقت، وطارئ، وأنها على وشك الرحيل في وقت ما.. الرحيل إلى أين.. وإلى أي مكان، يصمت الصوت في داخلها، فلا تجد إجابة. لذا ظلت الحقيبة مغلقة تمامًا في شقة المنيل التي ظلت أسماء تقيم فيها، وكانت شهد بين حين وآخر تأتي للمبيت عند أسماء.

التقت ناصر بعد تسعة أشهر من وفاة أمها، يوم عيد ميلاد أسماء، حين كانوا يحتفلون في مقهى نيلي أرضه متدرجة وترابية، وطاولاته قديمة،

وكراسيه متآكلة، لكنه مكان أليف بالنسبة إلى أسماء وشـــهد، وناصـــر، ورفاق آخرين لا تعرفهم. لم يكن قد مر على موت والدة ناصر ســـوى عامين لذا كان تعاطفه معها ظاهرًا جدًّا، كما كان وحيـــدًا مثلـــها، إذ لم يكن له سوى أخ غير شقيق يسكن في مدينة **6** أكتوبر، وأخت تعيش في السعودية، أما والده فيعمل مقاولًا في الخليج، ويعود إلى مصر كل عـــام ليشتري مزيدًا من الأراضي، لكن كثرة المال لم تمنعه من أن يظـــل بخيلًـــا على أولاده، كما أن علاقة ناصر مع أبيه كانت متـــوتِّرة لأنـــه يعتـــبره مسؤولًا عن دفع أمه إلى الموت.

في البداية، لم تتدخَّل أسماء، في علاقتها مع ناصر، لاحظت رفيقتـــها انجذابها إليه، وخروجهما اليومي معًا، لكنها لم تعلِّق على الأمر حتى المـــرة التي عادت فيها من الخارج، ووجدتهما يجلسان متلاصقين في الصالون. لم توارِ أسماء انزعاجها من رؤية ناصر، دخلت إلى غرفتها وصفقت الباب. لم تمر دقائق حتى غادر بسرعة تاركًا عاصفة من الجـــو المشـــحون بـــين الرفيقتين.

تتحرك أسماء بعصبية حين تكون غاضبة، يرتج جسدها الضخم كله، شعرها الأسود مربوط إلى الخلف، يهتز قليلًا مع توتر حركتـــها. تلقـــي كلماتها بسرعة وتمضي كما لو أنها تضع عنوانًا لموضوع صحفي تكتبه، ثم لا تناقش كثيرًا، تتصرف دون استئذان.

"ناصر لا يناسبك، أنت وهو مثل الماء والنار."

"ومين النار؟" سألت بشرى ببرود زاد من توتر أسماء التي ردت بسخرية:

"ستكتشفين بنفسك، لكن اسمعي مني، ناصر صديقي وأنا أعرفه أكثر منك، هل تظنين أني سأقول لك نصيحة زائفة، هو لا يناسبك، تعرفي عليه أكثر، تصادقا، لكن لا تشتبكي معه بأكثر من هذا."

لم تتحدث أسماء مع صديقتها مرة أخرى في أمر الشاب الذي صار وجوده محسوسًا في حياتها، بل تحدَّثت مع ناصر موضحة له أن بشرى لو تلقَّت ضربة جديدة الآن ستقضي عليها.

لم تكن كلتاهما تثق تمامًا بآراء الأخرى. بشرى تنظر لأسماء بتشكُّك حين يتعلَّق الأمر بآرائها في الناس لأنها تعتبر أن رفيقتها تبالغ في التشكيك بالأشخاص، فيما أسماء تعتبر أن بشرى لا تملك خبرة حياتية كافية في الحياة والبشر عمومًا، وتتكل على إحساسها الداخلي في رؤية الناس والأشياء، ومن وجهة نظر أسماء أن الحس الداخلي وحده لا يكفي، وكلتاهما تقدم براهين على آرائها الصائبة في رفيقتها. تصرخ أسماء:

"كنت مبهورة بناصر، وأنا نبهتك، لكن لم تسمعي... تزوجتيه علشان...".

لا تكمل جملتها، لكن بشرى تعتبر أن ما قالته فيه قسوة وتجريح لها، فترد عليها:

"هل تذكرين صديقتك الصحفية، التي عرَّفتني عليها على أنها إنسانة رائعة، يومها قلت لك إنها تعاني من برود إنساني رهيب، وأنها لا يمكن أن تكتب بصدق، ولم يمض وقت حتى اكتشفت هذا بنفسك."

هكذا كانت تدور بينهما شجارات تنتهي بــذهاب إحــداهن إلى غرفتها، ومغادرة الأخرى البيت والعودة في وقت متأخر. لكنهما اعتادتا على هذا الإيقاع الذي ينتهي عند لقائهما في اليوم الثاني ظهرًا أو مساءً، لأن بشرى تذهب إلى عملها باكرًا، وأسماء تنام حتى وقــت متــأخر ثم تستيقظ عند الظهر لتذهب إلى عملها في الجريدة.

لكن الأسباب التي دفعتها للزواج من ناصر، هي عينها التي أبعــدتها عنه. بردت سريعًا تلك الشعلة التي اشتعلت بينهما. ولم يمــض شــهران حتى وصفت إحساسها لشهد قائلة: "بعد أن نكون معًا أحس أني معلقــة في الهواء، على حافة جبلين يمتد بينهما حبل، عــاجزة عــن البقــاء أو النــزول... فيما خواء... خواء بارد يلطمني على وجهي."

كان الخواء يزداد ويزداد، وناصر يبتعد أكثر، يسهر مع أصــدقائه، يغيب طويلًا. يجلس إلى كمبيوتره بالساعات. عاودتها الرغبة في المضــي بعيدًا، ما الذي حصل بعد مرور أشهر على الــزواج؟ لم تجــد إجابــة واضحة.

الجنين الذي تحرَّك في داخلها، لم يكن سببًا لتقاربهما، بل كان ســببًا مباشرًا ليقرر ناصر إنهاء هذا الزواج. قال لها بوضوح:

"لست مستعدًّا الآن لمسؤولية طفل."

مر أسبوعان على هذا الحوار، قبل أن تأخذ قرارها بمغادرة البيت، والعودة للسكن في بيت المنيل مع أسماء، لكن لم يمض سوى أسبوع واحد حتى داهمها نزيف حاد، يعلن عن رفض رحمها لذاك الطفل. تذكر تلك التجربة القاسية، ووجه الطبيبة المتعاطف معها. تذكر تلك الأيام بضباب كثيف، مثل رحلة موت وحياة، فقدت الجنين الذي تمنَّت الاحتفاظ به، بل إن أكثر ما رغبت به في تلك المرحلة أن يكون لديها طفل صغير، يكون شعاع نور لأيامها القادمة.

تم الانفصال عن ناصر بسهولة، كما تم الزواج. كانت بشرى تقول لصديقتها "إن الزواج تجربة لا يمكن أن يمحوها الإنسان من تاريخه مهما كان وقتها قصيرًا."

وكانت أسماء ترد: "إن الزواج مهما كانت سيئاته أفضل تجربة للنضج السريع."

بعد انفصالها عنه، لم تغرق في الكآبة كما كان متوقعًا منها، بل لم تحس بالهزيمة، كان ثمة إحساس في داخلها يخبرها أن ما حدث كان يجب حدوثه. لم تملك تفسيرًا واضحًا لهذا المنطق، لكنها لم تكن آسفة على الزواج، أو انتهائه. ولم تعرف كيف ظل بينهما نوع من القدرة على المسامحة. تبيَّن لها أنها لم تكرهه حين رفض طفلهما، لأنه كان واضحًا مع ذاته، تذكر يوم قال لها إنه أوشك على خيانتها في أكثر من مرة، وأنه لا

يريد تأسيس أسرة قبل أن يتأكَّد من قدرته على الإخلاص. هي أيضًا لم تبذل جهدًا كافيًا نحو علاقتهما، ربما هي وناصر كما وصفتهما أسماء مثل الماء والنار، يجب أن يظلا متباعدين كي لا يطفئ أحدهما الآخر.

* * *

نحن لا نملك مفاتيح أقدارنا. بل نمسك بأيدينا نسخًا وهمية من خرائط نظن أنها ستقودنا إلى الدرب الصحيح، وبعد أعوام كثيرة تضيع هباء، ندرك أننا كنا نمشي في عكس الاتجاه، وأن السعادة أو التعاسة محض هبة ليس للعالم الخارجي علاقة بها.

من يرى القصر الذي عشت فيه، من يرى الثياب التي كانت لي، المجوهرات التي امتلكتها، الحفلات التي رقصت بها، الموسيقى التي عُزفت من أجلي لا بد أن يحسم رؤيته للجزم بسعادتي، لكن البرد أقوى من كل الحكايات والتخيلات، لأنه حقيقي جدًا. البرد يترك آثاره على الوجه والأصابع، على الجسد، البرد يعصف بالروح فينهكها ويتركها سقيمة حتى النواة الأعمق منها. وأنا كنت بردانة.

بعد عودتي من إسطنبول، أشعلوا المدافئ في غرفتي، نمت على سرير مرتفع، في أعلاه قبة صغيرة تتدلّى منها ستارة رقيقة، بين أغطيتي الوثيرة رقدت طويلًا، تحوم حولي مربيتي، وتأتي أمي بين حين وآخر لتتفقد ابنتها العليلة. لا أذكر كم لزمني من الوقت حتى تعافيت. عدت إلى الحياة بعد رحلات موت كثيرة عرفتها حد الهلاك. ففي كل مرة كانت روحي ترتفع وتغادر جسدي برفقة فتاتين شابتين شديدتي الحسن، ترتديان اللون الوردي الفاتح، وتغنيان لي بصوت ساحر يشبه صوت عرائس البحر، ويتردد خلفهما غناء كورس مجهول، أتبعهما

باستسلام وبهجة، تشيران لي كي أسير خلفهما لكنهما لا تقتربان مني، بل تظلان بعيدتين مسافة خمس خطوات، وما إن أسير لأمتار وبعد أن نعبر بوابات كثيرة حتى تلتفت نحوي إحداهما وتأمرني بالعودة، يخفت صوت الكورس بعد أن تتوقفا عن الغناء وتعبرا بوابة كبيرة زرقاء، تختفيان خلفها، ويصطدم رأسي بحديدها الصلب. أركض عائدة وحدي تلك المسافة الطويلة، صمت ثقيل، عتمة، وفراغ أتخبَّط فيه بلا وعي، وحين أصل حدود جسدي تكون روحي منهكة من اللهاث. لم أكن أخبر أحدًا بسفري الليلي مع عرائس السماء، كنت أصمت حين تخبرني جلنار أنني استغرقت في النوم لمدة ثلاثة أيام بلياليها.

بعد عودتي إلى مصر، وبعد أن تعافيت تمامًا قيل إن أيادي مجهولة كانت تضع لي السم البطيء في الطعام، كي يعتل جسدي فلا أصبح سيدة القصر في يوم ما. كيف لأميرة غريبة أن تكون حاكمة على من فيه بعد سنوات قليلة. قيل أيضًا إن برد الجبال لم يناسب جسدي، حُكي الكثير عن النحول والمرض الذي جعلني ألازم الفراش لأشهر، لكن كل هذا لم يعد مجديًا كشفه، إن كان حقيقيًّا أم لا، لأنه لم يكن السبب في موتي، بل كان مجرد حكايات راق للناس تبادلها وسردها فيما بينهم، عن الأميرة التعسة، قليلة الحظ، التي لم يشفع لها الجمال والجاه والمال لتبقى إلى جانب زوجها ناعمة بترف الحياة ومسرات الأبناء وضحكاتهم. لم تكن تعاستي تحتاج إلى دليل لتكشف عن نفسها، كانت حاضرة بقوة في انطفاء لمعان العينين، وفي غروب شهوة الحياة.

ثم بعد أشهر من عودتي إلى قصر أبي على ضفة النيل، جاء الأمير لزيارتي، برفقة حاشيته المقربة، حاول إقناعي بالعودة معه إلى قصره. قال إنه يحبني كثيرًا، وأن زواجه من الأخرى لم يوقف خفقان قلبه لي

وحدي، لكن يقظتي ووعيي أن ما كان بيننا انتهى منذ لحظة إدراكي لتردُّده في أخذ أي موقف لمساندتي، جعل ذاك الحب أشبه بجرة فخار، كُسرت بعصا سميكة حولتها إلى نثار، وسال منها الماء على الأرض، وصار من المستحيل جمعه من جديد. هكذا انفصلت للأبد عن الأمير، ولم أعد أعرف عنه سوى ما أسمعه من أفراد العائلة، صار لديه ذرية من الأولاد والبنات، صار حاكم القصر والبلدة بعد موت أبيه، لكن قيل أيضًا إنه لم يكن سعيدًا في حياته.

* * *

الفصل الثاني

البيت الدمشقي

ليل بنفسجي. تسبح فيه ألوان كثيرة، ألمح نجومًا تـــبرق عبر شقوق صغيرة من ستارة نافذة غرفتي ذات اللـــون السكري. وجه أمي الأسمر، يشغل حيزًا مـــن الغرفـــة. وجهها يخرج من إطار صورتها المعلقة على الحائط ليصير بحجم الجدران التي تواجهني.

تتكلَّم وتتكلَّم بانفعال لا يتوقَّف، وجههـــا يشـــبه وجـــه نفـــرتيتي في الرسومات الفرعونية، فمها مزموم، وشفتها السفلى ممتلئة، لكن عينيهـــا تومضان. لم أفهم شيئًا مما قالته، تحكي بلغة لا أعرفها. رفعت يدي نحوهـــا محاولة ملامسة وجهها، وجنتاها بارزتان، لامعتان، منثور فوقهما بـــودرة برونزية، في أذنيها الصغيرتين قرطان من حجر الزبرجد، وفي جيدها عقد من الحجر نفسه. كانت مولعة بالأحجار الكريمة، حتى المزيَّفة منها. أنادي عليها: "ماما.. ماما... ابقي هنا"

تصمت.. تصمت طويلًا، ويبدأ وجهها بالتقلُّص حـــتى يعـــود إلى حدوده الطبيعية، إطار الصورة.

ما الذي أرادت قوله، لم أعرف؟

لم كانت تتكلَّم بمثل ذاك الانفعال؟

بعد رحيل أبي قرَّرت أمي أن نغادر دمشق، ونعود إلى بلدها. قالت لي إن الحنين هبَّ فيها لتمضي ما تبقى من عمرها في القاهرة. هذا ما حاولت أن تقنعني به.

عادت أمي إلى القاهرة بعد غياب طويل، لم يتخلله سوى زيارات متباعدة، غالبًا كنا نمضيها في الإسكندرية، لأن أبي -كما أظن -كان يخاف دومًا أن تلتقي أمي صدفة بأحد الأشخاص الذين عرفتهم في ماضيها. جزء كبير من حياة أمي كان الستار عليه مسدلًا ولم أكتشف بعضه إلا عبر صور بالأسود والأبيض كانت تخبئها في دولاها الخاص، ثم فيما بعد حين عدنا إلى القاهرة، صارت أمي تلوس بذكرياتها القديمة عن كل ما مر بها، ثم رويدًا رويدًا صارت تحكي باستفاضة، كنت أسجِّل كلامها عبر كاسيت صغير، وأعيد الاستماع وحدي لحكايات الأشخاص والأماكن التي تقصها علي. ففي الأسبوع الثاني من وصولنا إلى القاهرة، قرَّرت الذهاب إلى "حي عابدين" قالت إن لها أقارب هناك، وأنها لا بد أن تجد أحدًا منهم، سرنا معًا، في الشارع الرئيسي في البداية، عبرنا من أمام قصر عابدين، ثم انعطفنا يمينًا، كانت تسير وتسأل، وتتوقف عند الدكاكين والمحلات التي يبدو عليها مرور الزمن بوضوح، لتسأل عن أولاد عمومتها الذين سكنوا في هذا الشارع، لكن ما من أحد أفادها بشيء. لم تستدل على مكانهم، كما أنها لم تكن تعرف كيف تسير في الشوارع التي تبدلت تمامًا، ولم ترغب في إظهار عدم معرفتها أمامي.

وبعد خمسة أشهر من وجودنا في القاهرة، كانت أمي مثـــل الذئبـــة التي شاخت فجأة، وكما لو أن سقمًا مفاجئًا أصاب روحها، فزلزل قوها وتماسكها. كانت تقول لي:

"عايزة أزور العارف بالله"

"مين العارف بالله؟"

"أوفففففف.. إنت مش عارفة حاجة، العارف بالله في بلدي هنـاك، في طنطا"

هكذا كانت عبارالها متقطِّعة ومبتورة بجمل ظاهرها غـــير متـــرابط بشيء، لكن بالنسبة إليها كانت تعني شيئًا ما لن يفهمه سواها، وفي بعض الأحيان كان عمو نجيب يتدخَّل في حواراتنا مثل رجل كبير يفض الشجار بين طفلتين.

أكثر الأوقات التي تكون فيها هادئة، ومقبلة على الحياة تلك الـــتي تمضيها مع عمو نجيب، على شرفة شقتنا، أو في شقته، حينها تبدو أمـــي مثل طفلة صغيرة، ويبدو عمو نجيب مثل شاب في مطلع شبابه.

كان تأمُّلهما وهما يجلسان معًا عصر يوم جمعـــة يتحـــدثان بتلقائيـــة وانسياب، ممتعًا بالنسبة إليَّ. أمي بثياها السوداء الأنيقة، شعرها ملفـــوف خلف رأسها بمشابك حديدية، حركة يدها عجلى وهي تندفع بأســـئلتها الكثيرة التي تصل زمنًا ماضيًا وحاضرًا بمستقبل مجهول، نظـــرة عينيهـــا الثاقبة، وهي تسأله عن مكان مناسب تشتري فيه شقة بالمال الذي معها..

صوت الشيشة الخاصة بعمو نجيب ونظرته المطمئنة وهو يسحب نفسًا تلو آخر، قهقهة مشتركة بينهما على حادثة يحكيها لها بصوت منخفض، شرحه المفصل عن المدن الجديدة التي بُنيت في غيابها، توضيح مزايا مدينة 6 أكتوبر، وحسنات القاهرة الجديدة. يدور بينهما نقاش تفصيلي لا أشارك فيه، عن أهمية امتلاك شقَّة تتوفَّر فيها الشروط التي نريدها، وعند وصول الحديث إلى هذا الحد ترتبك أمي ولا تعرف المزايا المطلوبة في شقة الغد. تقول له بيأس: "الشقة دي علشان بشرى." يسحب عمو نجيب نفسًا عميقًا من الشيشة، ينظر إلى الشارع معلنًا أن عليهما القيام بجولات في تلك المدن لمعاينتها عن قرب. تستسلم أمي لقراره، ويخوضان معًا في الأسابيع اللاحقة جولات بحث شبه يومية– عن شقة مناسبة– قبل أن يستقرا على شراء شقة في مدينة 6 أكتوبر.

كنت أعد لهما الشاي ببهجة أم وجدت عريسًا لابنتها العانس. أفرح لأنها عادت للكلام، للتعامل مع الحياة وتجاهل حزنها الكبير على رحيل أبي، لكن كل هذا كان مجرد ستار خفي، بين ما يؤرِّقها، وما ستفعله في باقي أيام حياتها، وكان في هذا الأمر مشقَّة كبيرة، بالنسبة إلى كلينا، إذ لم يكن بمقدوري تركها وحيدة في البيت، كنت أفكِّر أن عليَّ في المرحلة المقبلة البحث عن عمل، لأن المال الذي ظل في حوزتنا لن يكفي لوقت طويل. لكن الحياة في القاهرة بالنسبة إليَّ بدت عسيرة جدًّا، لم أقل لها هذا، لم أقل لها إني أتخبَّط أيضًا في وحدتي، وفي جهلي من أين أبدأ العيش في مدينة لا أعرف فيها أحدًا. هي لم تقل إنها تعاني أيضًا، لكني كنت أحس بمعاناتها مع كل تقلُّص في ملامح وجهها عقب صدمة

اختلاف كبيرة أو صغيرة تحدث معها، بين المدينة التي تركتها، والمدينة التي تراها الآن. حين نمر في أحد شوارع وسط البلد أو المهندسين وترى القمامة ملقاة على الأرض تشيح بوجهها بانفعال ثم تحكي بعصبية أنها لم تكن تتخيل أن القاهرة صارت بمثل هذه القذارة. لم أكن أرد، لكن في بعض الأحيان كنت أحملها مسؤولية انتقالنا إلى هنا، وفي أحيان أخرى أتجاهل ما تقوله ببرود يسبب لها جرحًا أعمق.

رويدًا رويدًا، صارت ترتد إلى ذاتها أكثر، تمضي وقتها في قراءة القرآن، كما أنها غطَّت شعرها بإيشارب أسود أيضًا. ولم تنفع محاولات عمو "نجيب" لإخراجها من عزلتها، ثم تباعدت لقاءاتنا معه بلا سبب سوى فتورها نحو الحياة ككل، هذا الفتور الذي ستورثني إياه بلا رحمة.

* * *

سافرت إلى دمشق بعد عامين ونصف من مغادرتها.وصلت ليلة الرابع عشر من فبراير، يوم عيد الحب. علامات اللون الأحمر لاحظتها منذ وصولي. خطوات الأحبة لهفى وهم يحملون قلوبًا حمراء كبيرة، أو دبًّا أبيض من الصوف، أو باقة ورد. جئت استجابة لنداءٍ ملحٍّ يطلب مني القدوم، والبحث عن إجابات للأسئلة الحارقة.

كنت أقف بعيدة دومًا عن كل الأمور الغيبية التي لا نملك عليها دليلًا.لا أنفي، ولا أثبت، بل ليس لدي رغبة لتقصي الحقيقة في الخبايا التي لا يجدي البحث فيها سوى مزيد من التيه، لكن رحلتي بدأت عقب لمعان حياة أخرى في زمنٍ ما، امرأة تلحُّ علي حياتها بقوة لأعرف ماضيها،

أم أن كلام أسماء صحيح حين وصفت ما أبحث عنه بأنــه سـيقودني إلى "حارة سد"، ثم عادت وخففت وقع جملتها بالقول "هذه الأمور تظـل في الداخل، تحسِّين بها من دون دليل، لا ترهقي نفسك بالبحث كثيرًا."

لكنْ ثمة حنين جرفني إليه قبل محاولتي التواصل مع لميس، أخـذتني دمشق في تفاصيلها، في حكاياها الآسرة والمحزنة في آن واحد. في ذبـول بعض الأماكن، وتضخُّم زوايا عشوائية تستند بعضها إلى بعـض بقطـع صفيح تحجب أجساد سكانها، في ارتفاع الأبنية الشـاهق مـن دون أي ملمح جمالي مميز. وددت لو ألتصق بجسدي كله على أرض الشام وأبكي. كان بي شوق للساحات، للنوافير، للجوامـع، والكنـائس، للحـارات الضيقة في الشام القديمة، لبيتنا. للبيت الذي كان بيتنا.

لم تتغيَّر ملامح الشوارع الكبرى، لكن الأزقة كبرت في غيابي، أنـا أيضًا كبرت.

كبرت مئات الأعوام لكن جسدي يبدو شابًّا.

سرت في حارات دمشق القديمة. أنشج حزنًا من الفقد والوحـدة، ليس الحنين ما يعذبني، إنه الغياب، والتلاشي الموجع لكل ما كان.

جملة أم شوقي تهدر في أذني:

"عيني بشرى دوام الحال من المحال."

عبرت سوق الحميدية، وكأني سرت فيه البارحة، الحجـــارة الـــتي ترصف الأرض عرفت خطواتي، واجهات المحلات على حالهـــا تعـــرض العباءات المطرزة، والثياب الحديثة، والأقمشـــة، والأحذيـــة والعطـــور، ملاءات السرير، وثياب العرائس، ربما لم ينس الباعة وجهـــي، لكنـــهم افتقدوا السيدة السمراء الجذابة التي كنت أسير برفقتها وكانوا يتلكؤون في بيعها لرغبتهم في الاستماع للهجتها المصرية.

سرت طويلًا، ظللت أحوم بجوار المكان قبل أن أقرِّر الـــذهاب إلى بيتنا، كنت مثل مجرم يطوف حول الجريمة، ولا يعرف ما هي نتيجة فعلته. لم أكن مجرمة، ربما كنت هاربة في سفر لا أعرف متى ينتهي، أو إن كـــان سينتهي أصلًا. تساءلت لم أعود؟ وما من أحد أعود إليه في هذه المدينـــة. جئت إلى هنا مثل سائحة، أنام في فندق كأي غريبة، وأسير وعيني يحركها توقٌ حتميٌّ، وشوق دامغ لأماكن حنونة وعصية في آن واحد. تتوقـــف حركة أهدابي، تظل عيناي تركضان وراء التفاصيل الهاربـــة. حواســـي عطشى للهواء، للرائحة، للطعام، لمحبة غابت عني.

عند قبر أبي، بدت الأضرحة واجمة، لكل منها حكايـــة، لم يكـــن في المقبرة سوى الحارس، وعدد قليل من الأشخاص، امرأة في الخمسين تبكي عند ضريح زوجها، وشابة في مثل سني، وضعت باقة ورد عند قبر أمهـــا ومضت، كان ثمة سكون في حضرة الأموات، وكما لو أن أي كلمـــة في الفراغ ستؤذي سكونهم، لذا تبدو لغة العيون أكثر حضورًا.. أمام قـــبره جلست وبكيت كثيرًا، تحدثت معه لساعات، كنت كما لو أني أجلـــس

في حضنه، وكما لو أنه يستمع إليَّ وأنا أقول له: لو أنك ما زلت حيًّـــا، كانت اختلفت مسارات الأشياء، سألته عن القدر الذي جعل أمي تموت في بلدها، وأن يموت هو هنا، وكيف من الممكـــن أن تنتـــهي حيـــوات الأشخاص غير ما أرادوا! وأنا أين سأموت، ومن سيدفنني، سألته إن كان غاضبًا مني لأني تواطأت مع أمي لبيع البيت، ثم حكيت له عن حيـــاتي في القاهرة، وعن عملي، ورفاقي، وسألته عن خيالات الحياة الماضـــية الـــتي أراها، وإن كنت واهمة. وكيف أجد طريقي. كنت أتحدث معه كما لـــو كان بجانبي، وحين خرجت من المقبرة كان بي غبطـــة غـــير مـــبرَّرة، ولا مفهومة. كنت كمن اغتسل تحت المطر، بعد سنوات من الجفاف. عدت إلى غرفتي في الفندق نمت قليلًا، وبدت لي مشاهد متقطعة من حيـــاتي في دمشق، وجوه لا أعرفها، ووجه أبي يسير ضاحكًا ملوحًا لي بيده، قبل أن يتركني مع جماعة من الأشخاص المجهولين ويمضي بعيدًا.

كان الوقت بداية المساء حين عبرت من جانب الجـــامع الأمـــوي، سرت نحو الزقاق الذي يؤدي إلى بيتنا. رأيت أنوارًا ساطعة تنير المدخل، وحين تقدَّمت خطوات وجدت عند عتبة البيت يافطة كـــبيرة مكتـــوب عليها عبارة:

"البيت الدمشقي."

نزلت الدرجات الثلاث، الجارسون الذي استقبلني عند البوابة أراد أن يدلني على الطريق، أسير وراءه في المكان الذي يعـــرفني ويتنكـــر لي، يسألني الشاب الصغير إن كان سينضم إليَّ أشخاص آخرين كـــي يحـــدد

على أي طاولة أجلس، ولما قلت "لا أحد"، قادني إلى صف طويــل مــن الطاولات الصغيرة المخصَّصة لشخصين.

كرسيان متقابلان بينهما طاولة مستطيلة، أجلس على أحدهما، يظل الآخر شاغرًا. أنظر إلى ساحة الدار، غابت من الجهــة الــيمنى شــجرة الكرز، وشجرة الليمون، والورود والنباتات التي كانت عمــتي سمــيرة تنهمك بتشذيب أوراقها، وتقليب أرضيتها الترابية المسورة بحافــة مــن الإسمنت، كما تم تبليط الأرض ببلاط جديد لامع يشبه البلاط القــديم، لونه بني فاتح. في مكان المساحة المزروعة سابقًا يوجد منقل فحم كــبير ترتفع منه رائحة الشواء، وعلى مقربة منه ما تزال الياسمينة ترتفع عنــد السور، لكنها ازدادت شحوبًا بفعل قربها من النار. النافورة الرخامية عند عرشها في وسط صحن الدار تصب الماء في البركة الخماسية الأضــلاع، لكن تم تجديدها فبدت أكثر شبابًا وحيوية..

على الحائط قبالتي تميل أغصان شجرة المشمش، ما زالت في مكانها، تلك الشجرة التي تسلقتها مرارًا في طفولتي كي أقطف حبات المشــمش الفجة، والتوى كاحلي ذات مرة وأنا أنزل منها. شجرة المشمش مثلــي كبرت مئات الأعوام، وبدت أوراقها الرقيقة تشبه حفيدات شابات سمعن عني ويبادرن بإلقاء التحية، عبر التلويح لي بحركة مهتزَّة من بعد.

نظرت إلى أعلى طويلا، بدا الطابق العلوي معتمًا. غرفة جدتي شامية والغرف التي تجاورها مهجورة، أين صار ذاك الأثاث العتيق، الســجادة

العجمية الكبيرة في غرفة جدتي، وستائر عمَّتي المخرمــة الــتي كانــت تتلصَّص عبرها على فناء الدار، أين صارت ذكريات العائلة؟

حانت مني التفاتة نحو الدرابزين الحجري حيث كنت أقف بانتظــار خروج جدتي من غرفتها كي أمسك بيدها لتنــــزل معــي إلى الطــابق السفلي. غرفة جدتي مفروشة بالسجاد العجمي الفخم الــذي اشــتراه جدي من تاجر إيراني،وفي وسط الغرفة سرير كبير محاط بــأربع قــوائم حديدية، يصدر صريرًا يتردَّد صداه في أذني حتى الآن.

يقترب مني الجارسون، ويضع قائمة الطعام على الطاولة ويسألني إن كنت أرغب في تناول مشروب ما. أهز رأسي وأطلب منه كأسًــا مــن النبيذ. لم أتمكَّن من سؤاله عن الباب الخشبي الصغير الذي كان يحجــب غرفتي في زمن مضى، ماذا يضعون فيه الآن؟ قمت بنفسي لأسير نحــوه. الغرفة التي سكنتها أمي، وعاشت فيها ليالي غرام كثيرة مع أبي أصبحت مطبخًا تفوح منه رائحة المأكولات المقلية، أحد العمال الذي يرتدي زيًّــا أبيض، ويضع قبعة بيضاء على رأسه، منــهمكًا في تقشــير البطــاطس استغرب وقوفي الطويل قبالته، سألني إن كنت أبحث عن شيء ما، ظنَّ أني أراقب مستوى نظافة المطعم، أما غرفتي التي تجاور غرفة أمي، فكان بابها مغلقًا بكآبة، خمنت أن الغرفة صارت مخزنًا للمؤن، غرفة التراس التي كان يجلس فيها أبي مع ضيوفه في بعض الأحيان، تحوَّلت إلى غرفة للجلوس في أحد جوانبها تليفزيون كبير ملون، كانت مفتوحة ومفروشــة بأرائــك أمامها طاولات خشبية مستديرة وفوقها صوانٍ نحاســية كــبيرة، علــى

جدرانها بسط ملونة، ولوحات عن الشام القديمة، سيوف، ومجسمات خشبية للجامع الأموي وقلعة صلاح الدين. في غرفة التراس كنت أتمدد على الأرض فوق السجادة كي أكون قريبة من التليفزيون لأشاهد صديقاتي الكرتونيات في برامج الأطفال: "سالي" "فلونة" و"هايدي"، في ذاك الوقت كانت قمة سعادتي أن أقترب من الشاشة أكثر كي أدخل عالمهن. الآن أجد تشابها بين حكايتي وحكاية "سالي" البنت التي كانت تحيا بسعادة قبل أن تصير يتيمة وفقيرة.

تابعت خطواتي نحو الحمام، نزلت الدرجات الأربع، في الداخل تم تحديث الحمام بالكامل ليتناسب مع المطعم، تم تقسيمه إلى حمامين صغيرين، ووضعت مرآة كبيرة، أمام حوضين لغسل الأيدي. فتاة سمراء نحيلة تجدِّد ماكياجها أمام المرأة، وتبتسم لي، ثم تمضي بسرعة. حين غادرت وقفت مكانها، بدا وجهي شاحبًا جدًّا، ارتجفت يداي وأنا أفتح الحنفية، ولم أتمكَّن من منع نفسي من البكاء بشهقات مكتومة. مسحت دموعي بباطن يدي، كبست بأصابعي على عيني، كما لو أني أريد منعهما من البكاء، وعدت إلى مكاني.

لون السائل الأحمر يهتز بين أصابع يدي التي تمسك الساق الرفيعة للكأس. هل كنت أتخيل أني سأشرب في يوم ما نبيذًا أحمر في بيتنا... طلبت مأكولات كثيرة، كل الأطباق التي كانت تعدها عمتي بمهارة، وتفشل أمي في إعدادها، على مائدتي طبق تبولة نضر، وورق عنب بالزيت، ومتبل، وحبات من الكبة الشامية الكبيرة، وفطائر منوعة من

اللحم والجبن والسبانخ. لم تكن بي رغبة للطعام بل للنظر، ومقارنة طعم الحياة كم اختلف.

بعد كوب النبيذ الثاني كنت أتلهَّى وأسلِّي نفسي بنسيان حكـــايتي، ومراقبة الناس من حولي، مارست هوايتي في تخمين حكايـــاهم، تقـــدير أعمارهم، ومنحهم مهنًا وحيوات أرى أهم يستحقوها، هذه الهواية تشبه عملي في الجرافيك حين أركِّب صورة إلى جانب أخرى حتى تبدوا أكثر تناسقًا، الجرافيك تركيب صور على الكمبيوتر من وجهة نظـــر جماليـــة لمكاها المناسب، هوايتي كانت إعادة تركيب حيوات البشـــر في مخـــيلتي لأرى كيف ستكون.

على الطاولات الثنائية، في الصف الذي أجلس عليه، لم يكن يجلس سوى زوجين من العشاق، بدا لي أهما في مطلع غرامهما، قبالتي رجـــل وحيد أيضًا بدا في أواخر الأربعينيات أو في أول الخمسين، كان له مظهر سائح أوروبي، يرتدي بنطلون جينـــز، وقميصًا أبيض يطوي أكمامه حتى المرفقين، يضع ساقًا على ساق وينهمك في تدخين غليونه، الذي يقطعـــه بتحريك الشوكة لتناول سلطة الخرشوف، ومتابعة الجلوس باســـتمتاع، رغم أصوات الأغنيات الشبابية التي ترتفع في المطعم. الطاولات الكبيرة كانت شبه خالية، لكن الحال تغير بعد نصف ساعة، فقد ازدحم المكـــان بعائلات وعشاق وأزواج جدد، وقدامى مع أطفالهم، ذاك الازدحام الذي لم يمكنني من متابعة لعبتي، في غرس عيني دواخل النفوس واســـتنباط مـــا فيها. عدت للتركيز على حكاياتي، على التنقل في نظري بين كوب النبيذ

في يدي، وصحن سلطة الخرشوف على طاولة جاري. هذا الرجل هـــو صافي، الذي سأكتشف فيما بعد أنني أخطأت في تخمين هويته كســـائح، وأنه يشبهني في كونه ليس غريبًا ولا مقيمًا، بل هو زائر جاء يتبع قدره في المدينة.

كان ثمة سخونة ترتفع إلى رأسي، وألم حاد في معدتي، دوار وارتجاف في ساقي، تحركت نحو الحمام مرة أخرى لأغسل وجهي. صـــببت المـــاء البارد على وجهي، بللت شعري الطويل الذي بـــدا منكوشًـــا قليلًـــا، وجنتاي محمرتان، وعيناي على وشك الانسدال وأنا واقفة، دخلـــت إلى الحمَّام وتقيأت كل ما في معدتي سال الدمع من عيني، وأنا أحس أن كل أحشائي على وشك الخروج من جسدي.. بذلت جهـــدًا كـــي أعـــود لطاولتي، كنت أواصل مسح وجهي وعيني بالمناديل البيضـــاء، وضـــعت حقيبة يدي في حضني، وأسندت رأسي إلى الطاولة وأغمضت عيني بـــلا وعي.

ربما مرَّ أكثر من نصف ساعة وأنا على ذاك الحال، قبـــل أن أرفـــع رأسي لأرى الرجل الذي كان يجلس قبالتي والجارسون الشـــاب يقفـــان بجواري، يخشيان الاقتراب مني؛ ينادي عليَّ الجارسون: "يا آنســـة، يـــا آنسة" الرجل الذي خمَّنت أنه سائح، قال له بعربية سليمة: "يبـــدو أنهـــا مريضة." كل هذا كان يتم بالنسبة إليَّ في ثوانٍ قليلـــة، وبـــين الصـــحو والمرض. رفعت رأسي نحوهما، مؤكدة أني بخير. يعود الجارسون إلى عمله، ويستأذنني الرجل بالجلوس إلى طاولتي، يُعرِّف عن نفسه، ويقول لي إنـــه

طبيب، وأني شربت الكثير من النبيذ الذي يبدو أنه أضـــرني. تــذكَّرت حينها أن آخر مرة شربت فيها النبيذ كانت مع ناصر، قبـــل أن نفتـــرق بشهرين، في محاولة منَّا لبث الحياة في علاقة شُرخت سريعًا. يومها دخَّـــن هو سيجارة حشيش، وأخذت منه عدة أنفـــاس، ثم عـــدت واكتفيـــت بالنبيذ، حين أحسست أن الحشيش يحرِّك في ذهـــني خيـــالات بعيـــدة وماضية، ولم ألبث أن أجهشت بالبكاء الشديد وأنا أحكي لناصر عـــن أبي.

لا أذكر إن كنت حكيت لصافي ذكرى هذه الحادثة. أذكـــر أننـــا خرجنا معًا، وأني حكيت له عن بيتنا الذي كنا نجلس فيه الآن، سرنا معًا قرب الجامع الأموي، عبرنا سوق الحميدية الذي أغلقت حوانيته، سألني عن مكان سكني، وهو يصعد معي في سيارة التاكســـي، ويطلـــب مـــن السائق التوقُّف عند أقرب صيدلية. اشترى لي الدواء، وطلب مني وهـــو يودعني عند باب الفندق أن لا أتناول أي شيء يحرِّض معدتي على الثورة من جديد. وبعد نصف ساعة من وصولي إلى غرفتي، اتصل بي ليطمـــئن عليَّ.

كان لصافي مظهر سائح يتفرَّج على الحياة أكثر من هيئـــة طبيـــب جاد، بشرته بيضاء مشبعة بحمرة، تجاعيد جبينه وغليونه تمنحـــه ملامـــح فيلسوف، أما شعره الرمادي فيشبه شعر قائد أوركسترا متقاعد. يتحرك ببطء، ويتحدث بصوت خفيض وجمل مقتضبة، تلمع عيناه ويتمتم بثقـــة حين يكون على وشك قول جملة هامة. كان فيه هـــدوء رجـــل زاهـــد

بالحياة. ربما لكل هذه الأسباب بدا موحيًا بالثقة، لكن ليس هذا ما جمعني به، ولا تلك الطريقة المخجلة في تعارفنا. ثمة ما هو أبعد من الصدفة القدرية.

في اليوم التالي، عند الصباح، كنت في سريري أحدق في سقف غرفة الأوتيل الباردة، وأتذكر أحداث ليلة الأمس، لم أكن جازمة بشأن كل التفاصيل، وما إن كان الرجل الذي التقيت به ليلًا في "مطعم" بيتنا، ذاك الطبيب، قد قال لي إنه سيأتي ليطمئن عليَّ اليوم. كان بي توقٌ كبير لرؤية الرجل الذي يقف بثبات عند حافة الكهولة برزانة راهب، عيناه تنظران بعطف إلى العالم المحتضر. لكن ماذا لو كان مثلي غير جازم بشأن كل التفاصيل، غير متأكد تمامًا من لقائه بي، ومن اسم الفندق الذي أوصلني إليه. لم أعرف عنه أي شيء يوصلني له، وإن لم يظهر اليوم أو غدًا، ستتبخر أحداث تلك الليلة، ولن يظل منها غير ذهابي إلى بيتنا، عشاء مع نبيذ أحمر، أعقبه قيء ومرض. بجانبي على الكوموديبنو الصغير كان الدواء الذي اشتراه لي، والذي يؤكِّد حضوره. تناولت منه حبة واحدة فقط.

فكرت أن عليَّ الاتصال بعمتي سميرة، لكني تردَّدت وقررت الاتصال بابنها الأصغر علي، كان يصغرني بعشرة أعوام، وبيننا نوع من ألفة طفيفة بين أقرباء متباعدين. لكن منذ مغادرتي دمشق مع أمي لم يحصل بيننا أي تواصل، والآن أحس بخجل من ظهوري المفاجئ، كي أتصل به للسؤال عن عمتي وعنهم، كما لو أن شيئًا لم يكن.

تأخَّرت عمتي سميرة بالزواج، ظلت تعيش معنا في البيت الكبير حتى صار عمرها 33 عامًا، لم تكن جميلة، كما لم تكن قبيحة، لها وجه بيضاوي بوجنتين بارزتين، وعينين بنيتين صغيرتين، بشرة وجهها حنطية تميل إلى الاصفرار، أنفها متناسب مع وجهها، وفمها رفيع وقاسٍ بلا أي امتلاء أنثوي، جسدها أميل إلى النحول رغم امتلاء وركيها، لكنَّ صدرها صغير وكتفيها ضيقان. حظُّها من التعليم كان قليلًا أيضًا، فقد تركت الدراسة باختيارها التام بعد حصولها على الشهادة الثانوية، لم تكن تتطلَّع للحياة خارج البيت، كان كل أملها أن تحصل على عريس مناسب تتزوَّجه وتمضي إلى بيته، لكن هذا لم يحدث بسهولة، في حين تزوَّجت أختها الصغرى بسمة من شاب وسيم، وميسور، غادرت معه إلى كندا. ظلت سميرة في البيت، تعلمت من جدتي شامية كل الشؤون المنزلية المعقدة، بالإضافة إلى الطهي والحفاظ على نظافة المنزل من أي رفة غبار، كان هناك طقوس موسمية تحرصان عليها، في الصيف: صناعة المربيات، والاحتفاظ بالفاكهة من موسم إلى آخر، إعداد أنواع الأطعمة المخزنة مثل الزيتون، والمكدوس، وصلصة الفلفل الأحمر الحلو، تنسيق الزهور وزراعة حوش الدار بالورود العطرة والأعشاب المنزلية مثل البقدونس والنعناع والمردقوش والحبق، ثم تنشيف أوراق الورد والختمية لعلاج السعال في أيام البرد. أما في الشتاء فتنهمك سميرة في حياكة الصوف، والكروشية والكانافا. حاكت لي وأنا في الخامسة، قفازات حمراء، وشالًا أبيض وأحمر، وقبعة تشبه قبعة بابا نويل. وحاكت لأبي كنزة صوف بنية

وبيج، وزعتها أمي في الجامع الأموي مع ثياب أبي الأخرى بعد موته بأربعين يومًا.

لم ترث سميرة عن أمها بياض البشرة الذي تميَّزت به، ولا طول القامة، وملامح الوجه، ولمعة العينين، وتكويرات لجسد، بل ورثت مهارة اليدين، وخفة الحركة. ولعل هذه الصفات هي التي جلبت عريس عمتي تاجر العطور المركَّبة، الذي كان يشترط في عروس المستقبل أن تكون طاهية بارعة، وربة بيت ممتازة ولم يكن معنيًّا بأمور الجمال، بل كان يقول عبارته الشهيرة "الجمال على الحيطان"، لكن عمتي راكمت في كل عام تتأخَّر فيه عن الزواج حقدًا مكنونًا على كل من حولها، على أختها الصغرى بسمة، وعلى أخيها وعروسه المصرية، ولم تكن تجاهد في الحفاظ على وئام شكلي داخل البيت، اعتبرت أن هذا بيت أبيها وأن من حقها أن تكون السيدة المتحكِّمة فيه بعد ضعف صحة أمها وعجزها عن القيام بكل الشؤون المنزلية. منعت أمي من الاقتراب من المطبخ أو المشاركة في إعداد الطعام كي لا تتعلَّم ولو بالنظر إتقان أي نوع من مهاراتها، ظنًّا منها أنها تؤكد نفوذها على الأسرة عبر الاعتماد الكامل عليها في كل شؤون البيت، لكن أمي لم تكن مكترثة للأمر لأنها كانت مشغولة في قضية حملها المتعثر، وإجهاضاتها المتكرِّرة.

اعتادت أمي على التعامل مع سميرة ببرود أقرب إلى التجاهل، وهذا كان يزيد من استفزازها، ويدفعها للقيام بعواصف صغيرة من الغضب، تنتهي بتدخُّل أبي للجم أخته، وتهدئة زوجته، عبر إعادة شرح حال سميرة

في العنوسة والوحدة، وأننا يجب أن نتعاطف معها جميعًا لأنها ترى حولها كل من هن في سنها وحولهن أزواجهن وصغارهن، وكانت أمي تصمت ليس لأنها مقتنعة بكلام أبي تمامًا، بل لأنها من النوع الذي لا يستهويه الغضب، ونكد العيش.

بعد زواج عمتي من تاجر العطور المركَّبة، وانتقالها للحياة معه عند أطراف دمشق، ظلت تأتي لزيارتنا كل يوم جمعة برفقة زوجها، الذي يرافقها إلى البيت، ثم يمضي لصلاة الظهر في الجامع الأموي، قبل أن ينضم من جديد لزوجته في بيت أهلها. كانت سميرة حريصة جدًّا على التمسُّك بغرفتها، تتناول الغذاء معنا ثم تأخذ زوجها إلى أعلى كي ينام القيلولة، وتنشغل هي بالتأكد أن كل ما تركته فيها ما يزال في موضعه، كما لو أنها على وشك العودة إليها في أي وقت. منحها الزواج نوعًا من الجمال المطمئن، الذي ينشأ من علاقة جسدية مستقرة تنعكس على توهج الجسد وإشعاع النظرات، وغموض الابتسامة، والإيماءات المتكرِّرة والتلميحات المستمرة بجمل واضحة للقريبات والجارات عن غرام زوجها بها، وعن ليالي الشبق والمطاردات بعد وجبة عشاء دسمة أعدتها له.

احتاجت أمي لوقت طويل كي تعتاد القيام وحدها بمهام البيت، فقد كانت عمتي ماكرة في تعمد تغييبها عن تعلم إيقاع مسؤوليات البيت. ولما صار عليها مواجهة الأمر منفردة، لم تتمكن إلا من تسيير الأمور بشكل سطحي، أزعج جدتي التي تعيش وسواس النظافة، ودفع أبي الساعي باستمرار للهدوء كي يبحث عن امرأة تساعد أمي في العناية

بالبيت الكبير، ومعاونتها على تعلم بعض وصفات الطهو الشامية التي لا تتقنها بحكم أنها غريبة، كما أن أبي أيضًا لم يكن مشغولًا بتحويل زوجته لربة بيت ممتازة، ورغم عدم إنجابها طفلًا آخر غيري مدة عشر سنوات، لم يراكم في داخله أي نوع من الحسرة، مستسلمًا لحكمة الحياة، معتبرًا أن هذا قدره وهو راضٍ تمامًا. كنت أسمع من غرفتي المجاورة لغرفتهما، أصوات سهراتهما على أنغام موسيقى راقصة. أظن أنها كانت ترقص في ثياب تشبه الثياب الرقيقة التي اشترتها في الجهاز. ويبدو أن ليالي الغرام تلك كانت تغيظ عمتي التي لا يمكنها أن تسمع صوتهما، بل تبصر من غرفتها – عبر نافذتها العلوية– التي تجاور غرفة جدتي نور غرفتهما مضاء حتى ساعات الفجر الأولى ليلة الخميس، وكانت كلما دخلت غرفة أمي التي لا تتشابه مع غرفتها في الترتيب والأناقة، تبدأ في التعليق وإسداء النصح لأمي للعناية بغرفتها أكثر، ثم تعلق عيناها عند قميص النوم الزهري الرقيق المعلَّق على المشجب، فتغادر بصمت.

زواج عمتي حصل فجأة، في ترتيب اجتماعي من إحدى العجائز صديقات جدتي، التي كانت تأتي لزيارتها كل عدة أشهر، انبهرت بشراب الورد الذي تعلوه حبات الصنوبر، قدمته عمتي لها في يوم صيفي حار، وأعقبته بطبق مهلبية تعلوه القشطة المزينة بالفستق الحلبي. كما راقت لها نظافة الدار، وأناقة الغرف، وعرفت أن سميرة هي التي تقوم بكل هذا، مما شجَّعها على ترتيب زيجة لها من ابن أختها الذي تأخَّر بالزواج أيضًا.استمرت خطبة عمتي ثلاثة أشهر فقط، كل الأطراف كانت متعجلة لإتمام الزيجة، خوفًا من فشلها في اللحظات الأخيرة ولأتفه الأسباب كما

حدث في بعض الزيجات. ولم تكن سميرة تحتاج أكثر من ثلاثة أشهر كي تكون جاهزة للانتقال إلى بيت زوجها، لأنها دأبت طوال سنوات العنوسة على الاستعداد لليوم الموعود عبر اقتناء جهاز عرس كأي فتاة أخرى، من مناشف وشراشف، وثياب داخلية، وأطقم قماشية للمطبخ، وبعض الأواني الخزفية المميزة التي لا تتكرَّر نقشتها في الأسواق. كانت تُخزن كل هذا في غرفتها داخل حقائب جلدية كبيرة تضعها تحت السرير وفوق الدولاب. وفي يوم نقل جهازها إلى بيت العريس، استدعت قريباتها من نساء العائلة ليتفرَّجن على الجهاز الذي بلغ عدده سبع حقائب كبيرة، بالإضافة إلى شنطة شفافة من البلاستيك الأنيق تضم مفرش سرير أبيض كبيرًا موشًّى عند أطرافه بالدانتيل والأورغانزا، ومزينًا في وسطه بخرز ذهبي يمتد في خطوطٍ طويلة متداخلة، يلمع بريقها من داخل الحقيبة الشفافة.

حين شاهدت أمي جهاز عمتي أحسَّت بالغيرة، لأنها لم تعش تجربة الجهاز من قبل، فقد تزوَّجت أبي بسرعة وجاءت معه من القاهرة إلى دمشق، ولم يكن معها سوى حقيبتين وضعت فيهما ثيابها الخاصة، حينها لم تكن مشغولة بهذه التفاصيل، كانت ثملة بالحب الذي سيظل مسيطرًا على حياتها حتى رحيل أبي. هذا الحب الأسطوري الذي جعلها تترك كل شيء من أجله.

لكن زفاف عمتي، أو جهازها، ومرحلة الإعداد لطقوس ما قبل الزفاف، ثم مشاهدة بيت عمتي الذي كان تحفة فنية حقيقية، شكَّلتها

أصابع سميرة على ذوقها الخاص، خلق داخل أمي إحساسًا بالغيرة، مـــع رغبة في شراء أشياء تفوق جهاز عمتي جمالًا. وبعد زواج عمتي بأســـبوع أعلنت أمام أبي بوضوح أنها في زواجها السريع منه حُرمت من الإعـــداد لفرحة الجهاز، وهي تريد أن تشتري جهاز عـــروس كاملًـــا. أبي الـــذي استغرب طلب زوجته، ابتسم ابتسامة متعجِّبة ولم يعترض على طلبها، بل سألها عن الدور المطلوب منه القيام به. وضع بين يديها المال ومضـــى إلى عمله. كان أول ما اشترته أمي في جهاز عرسها المتأخِّر مفـــرش ســـرير يفوق مفرش عمتي جمالًا وفخامة، ثم راحت تشتري أغطية للطـــاولات، ومناشف، ومفارش للسفرة من أحجام عدة. تتعمَّد الـــذهاب إلى ســـوق العرايس، وأنا برفقتها، تشتري قمصان النوم الشفافة المثيرة، وبيجامـــات الساتان، وثيابًا داخلية من الحرير. استمرت لوثة جهاز العروس في حياة أمي لأيام عدَّة، قبل أن تعلن تعبها من التجوال، وتضع ما اشترته بما فيـــه مفرش السرير الفخم في حقيبتين من الجلد، مقلِّدة بذلك عمتي سمـــيرة. لم تستخدم أمي من تلك المشتريات سوى ثياب الأنوثة التي تـــبرز جمالهـــا أكثر، واختتمت لوثة الجهاز بأن حملت تلك الحقيبتين– ومـــا صـــارت تضيفه إليهما– معها إلى القاهرة يوم غادرنا معًا، معلنة أن فيهما جهـــاز عرسي.

* * *

المطر يتساقط بغزارة، والناس يركضون في الشارع للـــهرب منـــه. مآذن دمشق بدت لي أكثر ارتفاعًا ووحدة، كأنها تقارب الغيوم الرمادية. سرب حمام يحلق في البعيد. أشتاق إلى المطر، القاهرة لا تمطـــر، هنـــاك لا

أرى الناس يتراكضون في الشارع للاحتماء بشجرة أو مدخل مبنى مجهول، هربًا من مفاجآت السماء الماطرة بسخاء. أشد ياقة معطفي الجوخ الكستنائي، وألف الشال البيج حول رأسي اتقاءً للبرد، لم أكن شفيت تمامًا بعد ليلة البارحة، لكن كان عليَّ المغادرة، فقد أزف الوقت، وسأعود إلى القاهرة بعد أيام، ولم أنجز ما جئت لأجله..

كان الوقت منتصف النهار، حين كنت أصعد في سيارة هوندا إلى جبل قاسيون، نحو بيت الشيخ الحكيم الذي أبحث لديه عن إجابات. نزلت من السيارة، ورحت أمشي على قدمي، هواء عاصف يشد معطفي، ويدفع شالي للطيران لولا تشبُّثي به. أذكر العنوان لأحد المارة، فيطلب مني مواصلة السير إلى الأمام. الطريق ملتوٍ وفيه تعرُّجات ترتفع وتنخفض. البيوت متلاصقة تحت أقدام الجبل، يخَيَّل إليَّ أن الجبل لو تنفَّس فقط، ستصير البيوت ركامًا.

ابتلع أسئلتي وخيالاتي وأنا أسير من منعطف إلى آخر، حتى وصلت إلى "جبل الأربعين" حيث بيت الشيخ. كل بيوت المنطقة مبنية بشكل عشوائي، أسلاك الكهرباء تتقاطع في الطرقات وتكشف أنها مسروقة، فيما بعض البيوت بدت أنها على وشك الانهيار لا محالة.

كان بيت الشيخ متواضعا جدًّا، باب البيت خشبي صغير، قديم وباهت، يشبه بيوت الأقزام، لو دخل منه شخص طويل، سيضطر إلى الانحناء. أرض البيت لم تكن مبلَّطة، وعلى يمين الباب الخشبي توجد غرفة صغيرة في أرضيتها سجادة، وفي وسط الغرفة مدفئة كبيرة تبث الدفء في

المكان، وحولها فرش سميكة من الأسفنج للجلوس. استقبلتني زوجة الشيخ بود، كما لو أنها تعرفني من زمن طويل، كانت امرأة ممتلئة القوام، وجهها أبيض، وفيه تجاعيد تزيد ظهورها ابتسامتها الدائمة. بدت في السبعين من عمرها أو أقل قليلًا، تلف رأسها بمنديل أبيض، وترتدي عباءة سوداء من المخمل. وكما يبدو أنها معتادة على استقبال الغرباء، والترحيب بهم، ولعلها لكثرة ما قامت بهذا الأمر صارت تحس أن كل البشر إخوة، ويستحقون المحبة، والعطف. قدمت لي الشاي الساخن فور دخولي، ثم دعتني تلك المرأة الطيبة للجلوس قرب المدفأة المشتعلة.

سألتها عن الشيخ، فقالت لي إنه سيعود بعد قليل، مرَّت أكثر من نصف ساعة، ولم تسلني عن سبب زيارتي، أو أي سؤال آخر تستدل منه عن أي معلومة عني. وضعت أمامي طبق برتقال، ثم استأذنتني في الدخول إلى المطبخ لأنها تعد الغذاء.

الشيخ السبعيني الهرم، ذو القامة الطويلة انحنى وهو يدخل من الباب الخشبي الصغير، ألقى السلام، ودلف إلى الداخل، ثم عاد ودخل إلى الحجرة التي أجلس بها وهو يقول: "أهلًا وسهلًا."

كان وجهه سمحًا وصوته هادئ، وهو يسألني عن حالي. جلس قبالتي، وراح يستمع لي. كنت أتحدث إليه وأرتجف، تتداخل في ذهني الصور والكلمات، لا أعرف إن تمكنت من توضيح ما أحس به وأراه في ذاكرتي البعيدة، ظل يحدِّق إلى نيران المدفأة وهو يستمع لي، ثم هز رأسه، وابتسم ابتسامة طفيفة وقال بصوت خفيض:

"في بعض الأحيان علينا أن نتقبَّل النداء، ننصت لــه دون خــوف، وأنتِ ما زلتِ خائفة. ولن يستطيع أحد أن يعطيك الإجابة، أنت أتيــت من مكان بعيد بحثًا عن الحقيقة، لكن الحقيقة ليست هنا. أنت تضــيعين الوقت هباء يا ابنتي... لكن ما زال أمامك وقت.. ما زال أمامك وقت."

لم يسمح لي الشيخ بمغادرة بيته قبل أن أتناول الغــذاء معــه ومــع زوجته، كنا نتناول الغذاء بصمت، أحسست أني مثل عابرة سبيل، أمــر ببيت ما أتناول فيه وجبة طعام وأمضي إلى قدري..

مطر الشتاء ينهمر كثيفًا، يبلل ثيابي، وأنا أحاول الوصول للطريــق العام، بحثًا عن سيارة تعيدني إلى الفندق. مضيت من بيت الشــيخ وأنــا أحس بالخيبة، لأنه لم يقل لي أي شيء، قطعت كل هــذه المســافة كــي أستمع لعبارات مبهمة، لا توضح أي غموض. ما الذي قاله لي، ما الذي لم أكن أعرفه! أدرك أن ما من أحد يمتلك الإجابات عن الأسئلة، لكــني خمنت أن هناك من يمكنه أن يمد يده بمفتاح صغير. لكن يبدو أني أضــل طريقي في كل محاولة. أحسست أن كلام الشيخ يشبه عبارة "أنقذ سمكة من الغرق."

في ردهة الفندق سألت الشابة التي تجلس في ردهة الاســتقبال، إن اتصل بي أي أحد. هزت رأسها نفيًا مع ابتسامة طفيفــة، صــعدت إلى غرفتي مع حس ضئيل بالخيبة. نمت فور دخولي السرير، كنــت بردانــة جدًّا، تصطك أسناني من البرد، وترتعش قدماي. استيقظت علــى رنــين الهاتف، كان صافي يسأل عني. أجبته بتمتمات غير مفهومة وسط العتمة

التي تسبح في الغرفة، وهذيانات الحمى في رأسي الساخن. كنت أرتعش، ولا أذكر ما قلت تمامًا.

بعد أقل من ساعة ازدادت حالتي سوءًا، لم أكن قادرة على الحركة، وندمت لأني لم أسأل صافي عن وسيلة للاتصال به، كما أنـــه لم يــــزوِّدني برقمه. غرقت في النوم من جديد، ولم أفكر الاتصال بأي أحد.

صحوت بعد ساعتين، على اتصال آخر من صافي، سألني عن حالي، ثم قال إنه موجود في ردهة الفندق، طلب مني النـــزول إن كنت أفضل، لكني اعتذرت وأنا أحاول أن أبدو شبه طبيعية. صعد صافي إلى غـــرفتي، بدا لي خريفيًّا، شاحبًا، وقلقًا. يشاء القدر أن أكون مريضة، كلما التقيت به.

"حرارتك مرتفعة، تحتاجين إلى دواء حالًا"، قال.

لم أكن قادرة على الكلام، أرتعش تحت الأغطية وهـــو يتحـــرك في الغرفة حولي، لا أدري عما يفتش. فتح الثلاجـــة، والـــدولاب الصـــغير بسرعة، ثم غادر لبعض الوقت وعاد ومعه كيس فيه بعـــض الأطعمـــة، والعصير والأدوية، ثم طلب من الفندق مزيدًا من الأغطية الصوفية. ظل صافي إلى جانبي تلك الليلة. ممددًا على الطرف الآخر من السرير، يضـــع لي الكمادات الباردة، يوقظني لتناول الدواء في موعده.

كان فيه نوع من الحنان الإنساني. إحساس ما يجعله قـــادرًا علـــى التعامل مع مواقف الحياة بحكمة فيلسوف، وخبرة طبيب.

في لحظات يقظتي من هذيانات الحمى، حكيت له عن خيالات المرأة التي تسكنني، وعن زيارتي للشيخ، وعن المطر الكثيــف الــذي امتصــه جسدي. سألته إن كان المطر يشبه القدر حقًّا، وأنه ليس بإمكاننا الهرب منه. فرد علي بحكايته، بتخليه عن الطب ليدرس الفلسفة، حكى لي عــن عمله أستاذًا للفلسفة الشرقية في أميركا، وأنه جاء إلى دمشق ليعد بحثًــا عن الناس الذين يزورون مقامات الأولياء.

في الصباح، كانت الحمى قد تراجعت درجاتها إلى حد كبير. أخبرني صافي أنه سيذهب لزيارة مقام ابن عربي، وأني لو كنت في حال جيــدة، لذهبت برفقته. مضى ولم يترك لي عنوانه أيضًا. لكنه وعدني أن يتصل بي مساء.

من هو صافي؟ هل هو قديس يظهر في الأوقات المناســبة ليعــتني بي ويمضي؟

* * *

يومها، أمضيت الصباح في سريري، وعند العصر عاد صافي ومعــه باقة من زهور الأوركيد البيضاء، ولفافة ورقية فيهــا بعــض الفطــائر. استبدل الورود الصناعية الموضوعة في المزهرية الزجاجية، بالباقــة الــتي أحضرها معه. قال وهو ينسق الزهور أن رائحة الأوركيد ستعيد لي بعض الحيوية.

تلمَّست أوراق الزهور المائلة بأعناقها إلى أسفل، وقفت قرب النافذة، ووقف هو قبالتي، سألته عن زيارته لمقام ابن عربي. حكى لي قليلًا عن البحث الذي يعده عن الأسطورة التي يخلقها الناس حول فكرة الأضرحة، وكيف تتشعَّب مع مرور الزمن، لتصير معجزات متخيلة.

قال:

"ابن عربي موجود في كتبه، لكن الناس لا تقرأ أفكاره، بل يقفون عند الضريح بحثًا عن كراماته، وهذا ما يحدث في المخيلة الجماعية لرواد أي ضريح، التصديق بالمعجزة لأنهم يريدون تصديقها."

تذكرت أمي بعد عودتنا إلى القاهرة، كيف كانت تسألني بإلحاح عن مقام العارف بالله، أمي التي لم تهتم بزيارة أضرحة الأولياء، إلا حين نذرت حملها بي للكنيسة المريمية. لم أخبره بما كنت أفكر به، لكني حكيت له أن أبي كان يحب ابن عربي ويقتني كل مؤلفاته.

سألني:

"وأنت؟"

قلت له إني أحب بيت الشعر الذي يقول فيه:

أدين بدين الحب أنى توجَّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

هزَّ رأسه وهو يبتسم ابتسامة وئيدة. تقاطعت نظراتنا للحظات، ثم أشاح بوجهه نحو النافذة المطلة على الشارع، كانت شـجرة النـارنج تتمايل بخشوع مع رذاذ المطر، وريح الشتاء.

بقينا صامتين لبرهة، كان في وقفتنا تلك، ومراقبة المطر المنهمر بخفَّة، حالة من السكون التي يبدو الكلام معها واهيًا، وغير ضروري، كما أني لم أكن قادرة على الكلام باندفاع في وجود صافي، ثمة مسافة تباعد بيننـا ليس في العمر فقط، بل في الخبرة والمعرفة ببواطن الحياة، وظاهرها.

كان فيه هدوء شديد، مستفز أحيانًا، وكما لو أن ما من شـيء في العالم قادر على إثارة انفعاله. تشابكت مشاعري نحو صافي، بين إحساسي أنه شخص غريب مجهول لا أعرف عنه شيئًا، وبين توق شـديد للبقـاء برفقته، لمعرفته أكثر، إنه نموذج لم ألتقِ بمثله من قبل، يجمع بـين الطـب والفلسفة، والإنسانية النبيلة في رؤية الحياة والكائنات. بدت لي الأوقات التي أمضيتها في مكتبة أبي، أقرأ فيها الكتب بشـغف، مجـرد سـاعات تناثرت في فضائي الداخلي من دون تراكم واضح، لأنها لم تكن موجَّهـة صوب معرفة معينة. كنت أقرأ الكتب الموجودة أمامي، لكني لم أسع يومًا للبحث عنها، لاختيار كتبي الخاصة، وتشكيل الثقافة التي أريد، حتى بعد موت أمي ومحاولة عمو نجيب إحضار كتب لي كي يخرجني من عزلتي، هو الذي كان يختارها، ولم أكن أنا التي أقترح عليه عناوينها، لم أنتبه إلى هذا الأمر إلا الآن.

وكما لو أن صافي، مرآة نقية وشفافة، يمكـــنني أن أرى فيهـــا ذاتي بوضوح. هل كانت اختياراتي في سائر الأمور مثل علاقتي بالكتب تخضع لتدخل الآخرين؟

غمرني إحساس حائر، لم أتمكَّن من تفسيره أبدًا، كان يشـــبه بدايـــة الضباب الزاحف في المساء. لم تشدني نحو صافي رغبة حسية، مثل تلـــك التي جمعتني مع ناصر. في وجود صافي أحسست بنوع من الحنين الموغـــل في القدم. حنين غائر، ليس له علاقة بأي تفسير منطقي.

فجأة سألني:

هل قرأت جلال الدين الرومي؟

أجبت بالنفي، فقال:

يجب أن تقرئيه بقلب مفتوح.

أمسك صافي ورقة، وكتب عليها: "الحب هو ذاك اللـــهب الـــذي عندما يتأجَّج يحرق كلَّ شيء، ولا يبقى ثمـــة إلا الله." جـــلال الـــدين الرومي.

ثم عاد وتابع كلامه قائلًا:

أتدرين بشرى، درست الطب كي أفهم سر الإنسان، ولم أعرف سوى الظاهر منه، وظللت أحس بنقص ما.

بدت عيناه طفوليتين بلونهما العسلي المائل للأصفر، تتناقضان مع تجاعيد جبهته وهو يستأنف كلامه قائلًا:

ثم قرَّرت دراسة الفلسفة في سنوات مرض أمي الأخيرة. كنت بجانبها طوال الوقت، أشرف على طعامها وثيابها واستحمامها.. رفضت أن أحضر لها ممرضة، إلا في الأوقات التي أضطر فيها للذهاب إلى عملي كي ترعاها في غيابي. ذات مرة وهي تجلس في بانيو الاستحمام وأنا أضع الصابون على رأسها، تذكرت نفسي طفلًا صغيرًا، وهي شابَّة قوية تنشف جسدي بمنشفة كبيرة وتفرك شعري لتجففه كي لا أصاب بالزكام. تساءلت إن كانت المرأة الشابة التي كانتها، هي العجوز السابحة في عالمها البعيد، العاجزة عن الحركة من دون مساعدتي. أحسست كم هي قاسية دورة الحياة، وكم نحن عاجزون عن إيقاف تحوُّلاتها الكبرى. أدركت أننا جميعًا، بلا استثناء، في حاجة إلى العون، كل ما في الكون يتكل بعضه على بعض، من غير منَّة ولا مقابل."

تذكَّرت الأيام الأخيرة في حياة جدتي شامية، كانت عمتي سميرة وأبي وأمي يتناوبان على الاعتناء بها، تلك المرأة الجبارة صارت هشة وضعيفة مثل عصفور منزوع الريش.

بكيت وأنا أسمع كلماته، والصور تتدافع في ذهني...

حكيت له عن أمي، كيف ماتت من دون أن تمنحني فرصة رعايتها، اختارت الرحيل بهدوء، وسرعة، قلت له إن مراقبته لموت أمه يومًا بعد يوم، أسهل من الموت المفاجئ الذي خطف أمي في ليلة شتائية باردة. ربما أربكته عبارتي، أو الحزن الذي سيطر عليَّ، فقال بهدوء:

"فلسفة الموت عند إحدى القبائل في الهند، تقوم على القيام بطقوس مفرحة عند حلوله، لأنهم يعتبرون أن روح الميت ستنتقل لعالم أفضل، وأن أي حزن على رحيله سيؤذي هذا الانتقال."

لكني كنت أبكي بحرقة، عاد إليَّ إحساس اليتم والخواء، الذي سيطر عليَّ بعد موت أمي، حينها أدركت أنه تم إلقائي من البيت إلى العالم الخارجي. من اللاوعي إلى الوعي، من الصبا إلى النضج القسري.

اقترب مني، ومسح دموعي. ضمني إلى صدره. تلاصق جسدانا بوجل ونحن نقف قرب النافذة... كان في صوته أسى، وهو يقول لي إن علينا تقبل الموت، واعتباره قدر حتمي، لكن الأهم أن لا نقف، وأن نزاول حياتنا.

سكنتُ على صدره للحظات، الحنين الغائر، الحارق في لهفته يتعالى مثل نيران غافية، مع يقين موجع أن رائحة جسده عرفتها من قبل. هدأ نيران الحنين الغائر، يصير مكانها صفاء مفقود تاه طويلًا عن مساره. صمت، سكون ممتد، بلا أي نأمة، كما لو أننا نستمع فقط لصوت أنفاسنا، وخفقان قلبينا.

كانت يداه الاثنتان عند كتفي حين قال:

"كريمة هي الحياة، نعم كريمة لأن الغبطة التي أشعر بها الآن لا حدود لها."

وصف ما يحس به بكلمة "غبطة." أما أنا فلم أتمكَّن من اختيار الكلمة المناسبة. كنت بعد ذاك السكون كمن خرج من الكهف، واكتشف فجأة أن قشرة الأرض تنشق رويدًا رويدًا، تتقشَّر الطبقات التحتية مع هبوب عاصفة تقتلع معها كل شيء: الأشجار، الحشائش، نبات الصبار، الزهور السامة، الفطريات، دالية العنب، الياسمين البري. وبعد العاصفة لا يبقى سوى رائحة الهواء الرطب والنقي، لكن جسدي يرتعش خوفًا من برد جديد، وعصب قلبي مكشوف وينبض بقوة، أنفاسي ساخنة على الزجاج الشفاف، كما لو أني على وشك كتابة رسالة لن يقرأها المرسل إليه.

وجه الله يبدو لي الآن عبر النافذة في أوراق الشجرة المبللة، وارتجاف يمامة هاربة..

كانت يداه مسدلتين حين غنَّى لي:

يا نسيم الريح قولي للرشا   ما زادني الورد إلا عطشا

لكن يديه كانتا على كتفي حين قلت له إني أحس بالوصل.

كان من السهل جدًّا أن أعرف في تلك اللحظة ماذا يعني الوصـــل، وماذا يعني السفر بعيدًا، والعودة في آن واحد.

"كوني متيقِّظة.... متيقِّظة"

قالها لي صافي وهو يمسك يدي بين يديه، قبل أن يغادر لزمنه الخاص.

* * *

كان يومي الأخير في دمشق. سأسافر غدًا.

مر جزء من الصباح، وأنا في غرفتي، أتأمَّل زهور الأوركيد، الـــتي تؤكد لي أن صافي كان هنا، وأنه ليس إحدى هلوسات الحمَّـــى. علـــى طرف الكوميدينو الصغير توجد بطاقته التي عليها عنوانه، رقم هاتفـــه في أميركا، ثم إيميله، ورقم الفاكس.

كنت أحس بكسل، وعدم رغبة في العودة للعالم الخارجي. لم أكـــن متحمسة للسفر، ولا للبقاء.

لكن كان ينبغي عليَّ لقاء عمتي، قبل مغادرة دمشق. هـــذا اللقـــاء ينبغي حدوثه وإن لم يكن على هواي.

اتصلت بعلي ابن عمتي، وقلت له إني سآتي لزيارته في متجره، وأود الذهاب معه لرؤية عمتي، طلب مني التأخُّر لما بعد العصر، وسيقفل المحل باكرًا ويصحبني معه.

مضيت إلى زقاق بيتنا القديم الذي يؤدي أيضًا إلى بيت أم شـــوقي، استقبلتني بحرارة. لم تتغير كثيرًا، ما زالت ابتسامتها تغلب أحزانها. لكنها بكت حين عرفت بوفاة أمي، أخذتني في حضنها وربتت على كتفي وهي تقول: "لا دايم إلا وجه الله." لم أرد أن أشاركها الحزن، عرفت أنه مضى عليَّ الكثير من الوقت وأنا في شرنقتي، وأن أي محاولة للاقتراب من تلك الشرنقة القاتلة ستقودني إلى متاهات جديدة من الظلام. طلبت مـــن أم شوقي أن تدلني على مكان صناديق الكتب التي تركناها لديها، قادتني إلى الغرفة الصغيرة التي تقع تحت السلالم التي تؤدي إلى الطـــابق العلـــوي. وجدت أغراضًا كثيرة متراكمة في الغرفة، وفي الزاوية ثلاثة صناديق مـــن الكتب ما زالت حيث وضعتها أمي، لا أعرف كم مضى عليَّ من الوقت وأنا أبحث وأقرأ في عناوين الكتب، وأستعيد ذكريات أيام ليست بعيـــدة جدًّا. اخترت كتبًا تراثية، وأخرى في التصوُّف، كما وجـــدت كتـــاب أشعار جلال الدين الرومي يتضمن قصائده بالفارسية والعربيـــة بـــدت نسخة قديمة ورقها أصفر، وتعود طباعتها لخمسينيات القرن الماضـــي في بغداد، فتحت الكتاب عشوائيًّا، فوقع بصري على بيت شعر يقول:

وإني غلام الشمس أروي حديثها　　فما لي وللّيل فأروي حديثه

* * *

استقبلني علي بابتسامة مرحِّبة، جلست على كرسي جانبي بانتظـــار أن ينتهي من بيع الزبائن. سألني عن حياتي في مصر، لم يكن يعرف برحيل أمي، بان على وجهه التأثر حين أخبرته. ولما بينت رغبتي في زيارة عمتي،

قال بوضوح بأنه لا ينصحني بذلك، لأن أمه جن جنونها بعد أن عرفت ببيع البيت، ولم تكن قادرة على مسامحة أيٍّ منا، لأننا فرطنا ببيت أبيها وأجدادها.

تذكَّرت كم كانت عمتي تفتخر بالبيت، وأن هذا البيت خرج منه شهيدان، جدها

"جابر الرفاعي" الذي استشهد في معركة ميسلون، وعمي "حكمت" الذي استشهد في حرب تشرين. كانت صورة جدي الأكبر "جابر" بالأبيض والأسود والكوفية حول رأسه، بجانبها صورة لجدي علي، وبجانبها صورة عمي حكمت بزيِّه العسكري. تحتل الصور الحائط الرئيسي في الصالون، بحيث يراهما كل من يدخل إلى الغرفة الواسعة.

لم تستقبلني عمتي بترحاب– كما توقعت – بل على مضض، رغم محاولات ابنها علي تخفيف حدة الجو المتوتر بيننا، حين انطلقت كلماتها الحادة نحوي.

لم تتغير عمتي كثيرًا، بيتها ما يزال على حاله، نظيفًا ولامعًا، وشديد الترتيب، كما لو أنه النموذج المثالي للبيت الدمشقي الحديث. وعلى إحدى الحوائط في الصالون واجهتني كل صور الموتى التي يبدو أن عمتي احتفظت بهم: صور أجدادي، وجدتي، وعمي، وبجانبها صورة أبي.

كانت عمتي مغرمة منذ صباها، برسم شجرة العائلة، والحديث في كل مناسبة عن قدوم عائلة الرفاعي من الأندلس إلى المغرب، ثم هجرتهم

من المغرب إلى دمشق. وحين تسترسل في سردها تعود حكاياها لجــدها الرابع الذي فرَّ إلى لبنان بعد أن قتل ضابطًا فرنسيًّا، استقر في بــيروت، وصار فرع آخر من عائلة الرفاعي هناك.

لكل هذه الأسباب، كانت عمتي الأكثر حرصًا، على التمسُّك ببيت عائلتها، أن لا يكون مصيره لغرباء.

أذكر أنها هي وأبي رفضا أكثر من محاولة قام بها تجار لشراء البيــت، وتعالت حينها نصائح الأقارب لأبي بأن يبيع بيت العائلة، ويعطي أختــه نصيبها، ويشتري هو شقة واسعة في المناطق الحديثة في دمشق. كانت أمي من أنصار الفكرة، لكن كليهما: أبي وعمتي رفضا بحسم، ثم قامت أمــي بعد موت أبي ببيع البيت بسهولة.

هذا ما لم تتمكن عمتي من المسامحة بشأنه، بان هذا في صوتها حــين قالت لي:

"ما بيجوز على الميت إلا الرحمة، بس مو قادرة أسامح إمك علــى بيعها البيت بليلة ما فيها ضو قمر، وبعدين أخذتك وهربــت... بيــت جدي وأبي يصير مطعم للأغراب... مش رح تهدى روحهــا لنبيلــة لأني مش مسامحة...."

تتوقف عن الحديث قليلًا، ثم تستأنف بعصبية:

"وإنت شو بتعملي بمصر، مع مين عايشة، ارتاحت أمك لما أخدتك من هون... وبعدتك عنا؟"

كنت صامتة طوال الوقت، لكنها عادت تكرر سؤالها مع من أعيش في مصر، قرَّرت أن أكذب عليها وأقول إن خالي الذي يعيش في الخليج، عاد ليستقر في القاهرة، وأنا أعيش معه هو وعائلته وبناته.

أردت أن أنهي تلك الزيارة بسرعة، لأني أحسسـت بالاختنـاق، لجلوسي مع امرأة يغلِّف الحقد روحها.

وقفت أهمُّ بالمغادرة، أردت أن أجلب التسامح لروح أمي البعيدة، اقتربت من عمتي، حاولت احتضانها، كانت بـاردة وهـي تأخـذني في حضنها وأنا أقول:

"سامحي يا عمتي سامحي... يمكن الذنب كله ذنبي، إني ما قلتلـك، سامحي ماما.. هي في دار الحق الآن، سامحي لخاطر بابا عندك."

حينها أجهش كلانا بالبكاء، وأسرعت أنا بالرحيل.

لا أعرف إن كنت أحضرت السلام لروح أمي البعيدة، لكني حـين جلست في الطائرة ونظرت إلى دمشق من أعلى، كنت أحس بنوع مـن الرضى يتناقض مع إحساس الفقد واليتم الذي أحسست به يوم غادرت دمشق برفقة أمي قبل عامين.

نداء العود

من قلب العدم، تبدو الحقائق هشَّة مثل غيم كثيف، لأننا نرنو إلى حقيقة أسمى لا نجدها ونستمر في البحث عنها. الحب جزء مما نبحث عنه في الحياة، لكن بعد الموت نمضي في مسارات مختلفة.

في رحلة مرضي العسيرة، تعرَّفت إلى يوسف، طبيبي، في البداية كان يأتي ليعالجني، ثم بعد الملمَّات التي داهمت حياتي ظل يوسف إلى جانبي، لقد أحبني حقًّا، ومنحني الكثير، من دون أن أقدم له سوى عاطفة حب مسروقة عن أعين العائلة التي ترى في ما آلت إليه حكايتي هزيمة كبرى، أمي، أخي يسري، وأختي ملك شاه، جميعهم كانوا يفكِّرون بمستقبلهم الذي تعكَّر بزواجي الفاشل وعودتي. وحده أبي مد لي يدًا حانية في تلك المرحلة، ترك يوسف يواسيني، وغض طرفه عن ملازمته لي لأكثر من جلسات العلاج، يوسف كان يعالج روحي، كي أخرج من حالة السقم. وكان يسألني عن الأشياء التي أحب، نجلس معًا عند الشرفة التي تطل على النيل، نثرثر أو نصمت متأملين صفحة الماء، قلت له مرة: "إن أكثر ما يطربني هو عزف العود"، استأذن أبي في اليوم الثاني أن يأتي لي بامرأة عوَّادة لتعزف لي، لأن الموسيقى ستخفف من شجني. هكذا سأتعرَّف إلى حسنى العوادة، وسأحب الموسيقى التي تعزفها، سأحب هيئتها الضخمة وهي تحتضن العود، وتميل عليه بحنو. ستعلمني العزف قليلًا، قبل أن يوقف الحزن حياتي من جديد.

لم يكن مر وقت طويل على تعافيَّ من المرض حتى مات أبي، وجدوا أميرال البحر منتحرًا في مكتبه. وضع نهايته بيديه، ولم نعرف جميعًا حقيقة هذا الاختيار. في مذكّراته حكى عن كآبة شديدة ظلت تصيبه لأعوام طويلة، وعن رغبته بالتحرُّر من التقاليد الصارمة التي نشأ عليها. في مذكراته كتب بسخرية عن قرارات الملك حين جرده من لقب أمير ليصير "نبيلًا." كتب أبي الكثير من الأحداث التي كان شاهدًا عليها، والمواقف التي تعرض لها. وكتب أيضًا عن قصة حب غامضة لسيدة غريبة، انتهت بفراقه عنها بسبب موتها المفاجئ. لم نكن نعرف شيئًا عن هذا، فقد عاش بيننا وبين البحر، ومات وحيدًا. من تلك المرأة؟ وهل التقى بها على ضفة أحد الموانئ الكثيرة التي كان يحل بها خلال ترحاله! تمنيت أن أعرف كيف كانت أيامه على السفينة، لكني لم أجد إجابات في كل ما كتبه. أخفيت مذكراته عن أعين الجميع، احتفظت بها في مكان بعيد لأقرأها وحدي، ربما حينها وجدت إجابات لحيرتي حين كان يراني برفقة يوسف، لما كان يتجاهل رؤيتنا ويتركنا معًا ويمضي بصمت، رجل البحر يموت بعيدًا عنه، بطلقة رصاص اختار موعدها كي تخرج من فوهة مسدسه. بعد موت أبي لن يبقى في القصر سوى أنا وأمي، أخي يسري سيسافر ليستقر في فرنسا هذا كان حلمه لكن وجود أبي حال دون تحقيقه، تزوج من سيدة فرنسية ثم صار يأتي لزيارتنا في أوقات متباعدة. وتزوجت أختي ملك شاه من أحد أمراء العائلة وسافرت معه إلى سويسرا.

سيظل يوسف معي، ستصمت أمي على مضض، لكن سيحول دون زواجنا صليب منقوش على يديه. وستمر أعوام كثيرة ويوسف يحاول إقناعي بالسفر بعيدًا، كي نتزوج ونحيا معًا.

الفصل الثالث

قطرات ندم على حصيرة مهترئة

وحيدًا في غرفته البائسة، يتمدَّد صابر الدمنهوري على سريره المهلهل، بجانبه على الكومودينو الصغير كيس من الأدوية، وقنينة ماء صغيرة، وعلى الأرض صرة من القماش فيها بضاعته التي يمضي إلى بيعها في الشوارع كل يوم. لا يوجد في الغرفة سوى حصيرة مهترئة على الأرض، ودولاب خشبي قديم من دون أبواب، يضع فيه صابر ثيابه القليلة.

حين أنهكه المرض ولم يعد قادرًا على المشي، صار يفرش بضاعته على الأرض قرب بوابة القصر، ينادي على المارة ليشتروا منه تلك الأشياء القليلة التي يفردها بعناية، تبدو في ظاهرها لا لزوم لها، غير أنها توقف بعض العابرين لشراء علاقة مفاتيح، أو تابلو للصور، أو خيط وإبرة. يبدو منظره غريبًا، إذ يجلس على الأرض ومن ورائه يبدو القصر الكبير، فارغًا وخاليًا من الناس، لكنه شامخ ويحمل كبرياءه في مسامات جدرانه.

لا يستطيع صابر أن يمضي بعيدًا عن حجرته التي تقع قرب فناء القصر، حجرة صغيرة كانت في الأصل بيتًا لأخته بهية، ولما تغيرت الحياة، ودار التاريخ وتبدَّل، واحتل القصر غرباء عنه، ثم استعاده أصحابه لكنهم تركوه هكذا مهجورًا، لم يبق من بيت بهية سوى هذه المساحة التي حصلوا عليها من كثرة ما بكت بهية مستعطفة من احتلوا القصر كي لا

يطردوها، هكذا ظلت بهية فيه، وظل هو مع بهية بعد أن مات زوجها، ثم كبر أولادها الثلاثة ومضوا إلى حياتهم، نافرين من تلك الغرفة القاتمة التي شاهدوا فيها أيامًا تعسة، وظل هو هنا وحده. يزوره بين حين وآخر أولاد أخته، ويعطفون عليه ببعض المال.

لكن ليس لهذا السبب ظل صابر هنا. لقد حاول الفرار مرارًا، لكنه لم يقدر، كان هناك ما يعيده دائمًا، يظهر له الشبح الغاضب، ويجبره على العودة، إنه العقاب القدري الذي حُكم عليه إلى الأبد، أن لا يبرح هذا المكان، لا يغادره مهما تغير الزمن وتحول. لكن زمنه هو لم يتغير أبدًا بل ازداد بؤسًا وشقاء. كل شيء في مصر تبدَّل من حال إلى حال، المدينة كلها تحوَّلت، وهو ظل مكانه شاهدًا على كل ما يجري من دون قدرة على الفعل، فهو ليس له علاقة بأي من تلك التحوُّلات.

منذ تلك الليلة المشؤومة، لم يبق من الشاب العشريني اليافع سوى جسد هزيل يؤكد على وجوده، وروح شقية لا ينفع مع سقمها أي دواء. لم يتزوج لأنه خاف أن يهذي بأحلامه عن حكايته، عن سره الكبير، قال له صديقه الذي بات في حجرته ذات مرة أنه يهذي في حلمه، وينطق في نومه بأسماء غريبة. خاف إن تزوج أن تعرف امرأة بسره، وأن تبوح به في لحظة غضب.

يمسك كيس الأدوية بيد مرتعشة، عروقها نافرة، يتناول دواءه، ويبتلع حبة تساعده على النوم. لكنه لا ينام، فتلك القصة تعاود الظهور

في النوم أيضًا. يحك شعر رأسه الرمادي، فتعلق في أظافره الطويلة قشور بيضاء تذكره أنه مضى عليه وقت من دون أن يستحم.

"هل في نومك نجاتك، يا صابر؟ هل في نومك هروبك، وفرارك مما فعلت!" يتردَّد في داخله هذا السؤال، ويظل معلقًا بلا إجابة. فالأيام والليالي تتناسخ في عمره، لا تحمل جديدًا، حتى الأسئلة المؤلمة، ظلَّت هي ذاتها على مدار الحياة، تكرِّر نفسها بوجوه أخرى.

يعود الصوت ليهمس له:

"كم أنت مسكين يا صابر، ظللت منذ ما يزيد على ستين عامًا، مسجونًا في هذه الغرفة التي اخترت البقاء فيها طوعًا، قرب شبحك الذي تعرفه، مع حيرتك اليومية، وتساؤلاتك عن السبب في كل ما كان، وعن حياتك التي مضت بلا أي فعل، سوى فعل واحد كان سبب شقائك، ولعنتك. اخترت بيديك هذا المصير البائس منذ تجرؤك على طعن جسد الأميرة."

رسائل

الأشهر الثلاثة التي تلت عودة بشرى من دمشق أمضت جزءًا كبيرًا منها وهي تقرأ في الكتب التي أحضرتها معها، لم تلتقِ ناجي سوى مرة واحدة حين جاء في إجازة، حكت له كل ما حدث معها، أخبرته عن صافي، مع ناجي لم تكن توارب أو تداري، لعل هذا أكثر ما يميز علاقتهما.

في تلك الأشهر اقتصرت علاقتها مع العالم الخارجي على الذهاب إلى عملها، والعودة إلى البيت، قليلة هي الأيام التي غادرت فيها المنزل مساء، وخاصة أن ناجي لم يكن موجودًا في القاهرة، وأسماء كانت في مزاج متعكّر بسبب مشاكلها العملية مع الجريدة.

لكن بشرى ظلَّت حريصة على زيارة نجيب القاضي مرة في الأسبوع، كانت تجلس معه قرابة ساعتين، وحدها أو برفقة أسماء، وفي بعض الأحيان تدعوانه للغذاء معهما يوم الجمعة حين تتبرَّع أسماء للقيام بالطهو.

تبادلت الرسائل الإلكترونية مع صافي بشكل يومي، عاصف أحيانًا، ومحموم بالأسئلة في أحيان أخرى. ليس من بين تلك الأسئلة حوار عاطفي بقدر ما صار بينهما جدالات فكرية وفلسفية، مثل المعلم

والتلميذ. وبعد أن قرأت في كتب التصوُّف صارت تصف علاقتــها بــه بأنها تشبه الشيخ والمريد. كان صافي قادرًا على إدهاشها باستمرار، لــيس في المعرفة والثقافة الفكرية والحياتية فقط، بل بمقدار البصيرة الإنســانية الحقيقية الخالية من أي ادعاء. لكن صافي كان يــرفض هــذا التحديــد لعلاقتهما، طالبًا منها أن تترك اللغة والتعريفات التي تنــال مــن قيمــة الإحساس الفعلي، فاللغة عاجزة في الغالب، وهي كانت تدرك هــذا في أعماقها، وتدرك أن العلاقة بين الشيخ والمريد يشكل الحب فيها جــذرًا أساسيًّا. تبادلا رسائل كثيرة، بتفاصيل متشابكة في أكثر من اتجاه. كانت بشرى تكتب عن يومياتها، عن عملها ورسوماتها، عن الكتب التي جذبت اهتمامها. وكان صافي يحكي لها عن علاقته بتلاميذه، عن ابنه رامي، وعن إجازته الأسبوعية التي يمضيها وحيدًا في الغالب. كلاهما كان يشكو مــن وحدة الروح، ويجمعهما الحنين الأكبر الذي يشبه الضباب حين يتكثّف.

كتبت بشرى إلى صافي تسأله عن علاقة جلال الدين الرومي مــع شمس الدين التبريزي، استوقفتها كثيرًا تلك العلاقة بخاصة في ما تلا مــن تبعاتها، مع شبهة الحب المحرَّم، والقتل...

شدَّتها تلك الحكاية، كما جذبتها شخصية جلال الــدين الرومــي، وكان صافي يحملها على الخروج من آلية التفكير الظــاهر، والمقــروء في الكتب، إلى استنتاجات أكثر بعدًا، يكتب لها وجهة نظره بالحكاية قائلًا: "شكل فراق الرومي عن شمس الدين التبريزي معلمًا من معالم ســيره في طريق الكمال، ودرجة من درجات رقيه، لأن شمسًا لم يكن هو الأصــل،

بل النور الإلهي الذي كان يراه الرومي فيه، النور الذي لمع في وجه شمس وبهر أنظار الرومي، لذا كان على هذا الوجه أن يغيب لكي يعلم أن النور لم يكن منبعه هذا الوجه، وكي يتوجَّه إلى مصدر النور ومنبعه."

بين حالات التواصل تلك، كانت أحاسيسها نحو صافي تشبه الشبكة، التي لا يمكن فصل خيوطها، ووصف كل خيط على حدة. فالخيوط مجتمعة تشكِّل الشبكة، ونهاية تلك الشبكة يكون في محاولة التفريق بين خيوطها. لكن التوق ظل مسيطرًا على علاقتها مع صافي، توق يؤلِّف بين حالة من الاشتياق وحنين موغل، لا تجد له تفسيرًا. وكانت تدرك جيدًا أن صافي ليس رفيقًا لها، ولا يمكنه أن يكون، فثمة مسافة بينهما تجعلها تحسُّ بالبعد عنه، لكن في تقاربهما الروحي، يغمرها إحساس أن ثمة وجودًا روحيًّا أبديًّا يربط بينهما، ويجعل ذاك الوصل غير مرهون بالحضور الفيزيائي للجسد.

تكتب إليه تسأله عن فكرة المسافة والوقت، كلماتها مقتضبة وفيها كآبة:

"الآن، في هذا الصباح يبدو دخان المدينة الرمادي المتصاعد باستمرار، كما لو أنه زفير كل الأشياء التي حولي، زفير القاهرة كلها. عليَّ نسيان حاجتي إلى القهوة. لأن القهوة سقطت على غطاء الطاولة الأصفر، تاركة بقعة سوداء مخيفة، تشبه حادثة انحراف قطار في ليلة عاصفة. إنه الوقت ينسلُّ منا، ونتقبَّل كل رعوناته مثل ابن مراهق. هو الذي جعلني أتمنى أن أكون نقطة عائمة في الفراغ. الوقت جعل صديقي

ناجي يحكي لي ونحن نقف على ضفة النيل عن ماهية الضوء المنبعث من النجوم، عن البريق، عبر المسافات الضوئية الموهومة. الوقت... يشبه ذاك الضوء، يعبر المسافات، يفصل بيننا، أظل أنا هنا، وتظل أنت هناك، تبعدنا المسافات."

بعد يومين تقرأ بشرى كلماته:

"شغلت قليلًا عن رسالتك المملَّحة، نافرة الدم، شغلت بأشياء كثيرة. موجة برد عزَّزت حجتي لعدم الخروج من البيت ليومين، لولا قدوم ابني رامي وإصراره على اصطحابي لحضور عيد ميلاد أمه، التي قرَّرت إقامته في بيتنا القديم بحضور أصدقاء مشتركين، مضت الليلة بسلام، ثم عدت لمواصلة مشاغلي مع ابن عربي، ثم دفعني كتاب جديد بين يدي عن فكرة المسافة التي تفصل بين الرائي وموضوع الرؤية إلى التأمل في عباراته، أمر طالما كان يلح عليَّ. وها أنت تسألين هل البعد الفيزيائي مقلق؟ أكيد مقلق للذين لا يرون في المسافة غير الكيلومترات الفاصلة. أما الذين في حياتهم ذلك "الشيء الآخر" الذي يضفي معنى على كل شيء، بما في ذلك البعد الفيزيائي، فإن المسافة قد يكون لها معنى مختلف.

في قصيدة قرأتها مرَّة يرد بيت شعر يقول: "أقصيك حتى أفتديك."[1] ومن الواضح أن افتداء الشيء، أو الآخر لا يتم بإرادة واضحة ووعي إلا بعد توفير هذه المسافة. الأمر لم يتوقَّف عند هذا الحد، بل

[1] من قصيدة للشاعر العراقي فوزي كريم.

أغواني للعودة إلى "تأملات" ماركوس أوريليوس، إمبراطور روماني عاش في القرن الميلادي الثاني، وكان على درجة عالية من الحكمة، والتواضع، قطرها في مصفاة روحه. هذه التأمُّلات تعلم كيف يتم النظر الفاحص إلى الآخر والأشياء فيما وراء الظاهر.

تذكري دومًا أن في الكلمات سحرًا لا يتولَّد إلا من معانيها الخبيئة".

صافي

"مضت عليَّ أيام أستمع إلى "بحيرة البجع" إنها شيء مذهل، بدأت أحفظ النقلات الموسيقية التي توقظ الحس من غفوته، أحببت فكرتك عن المسافة، لكن ماذا نفعل بالألم؟"

بشرى

"رسالتك المقتضبة أضحكتني. أنا الذي كنت أقول لك في رسالة سابقة: لم لا تكتبين إليَّ، ولِمَ الرسائل الخاطفة بسطر أو سطرين؟ أنا بالتأكيد لا أنزعج ولا أزعل منك، لكني أستغرب ابتعادك. كل الذي سمعته منك طوال أسابيع، جمل متباعدة، مع اعتذار خاطف. على كل حال، يجب أن تتركي في رأسك فسحة دائمة الخضرة. قلت لك سوف أكون في الإسكندرية قريبًا، وإذا شئت أن نلتقي فسوف نمشي معًا في تجوال بلا هدى."

صافي

"سأنتظر قدومك بشغف، ربما نمشي معًا في شوارع الإسكندرية القديمة، وسآخذك إلى الأماكن التي أحبها، أماكن عرفتها خلال طفولتي وفي أشهر الصيف التي كنا نمضيها هناك. أقرأ في كتاب عن حياة نيتشة، استوقفتني حياته المعذبة، الحب الموتور بصورة خائبة، دون أن يرتوي من حبه لا جسدًا، ولا وروحًا، قلبه يكاد يتوقَّف لعلة لا شفاء منها، ثم يموت بعمر الشباب.

لكن ما الذي جعله يستمر في الحديث عن مباهجه طيلة حياته القصيرة؟

تلك المباهج التي لا يُحسن رؤيتها حتى أقرب الناس إليه. على العكس يرون تعاسة مفترضة من خيبة حبه وعطشه الجسدي ومرضه، وموته الوشيك. هل كان نيتشة يفتح نافذة على الحياة ويقفز طليقًا إليها على طريقته الخاصة؟"

بشرى

"الحب بين رجل وامرأة لا بد أن يشكِّل الجنس فيه قوة حياة، أو قوة تدمير أيضًا، هذا أمر يشبه الإبداع، لا يعرف المرء بأمره مسبقًا، وإلى أي خيال سينتهي. الجنس استجابة لرغبات عديدة وجميعها غاية في الطبيعة. ولكنه قادر أن يتحول، بفعل وعي مشترك للآخر، ومع الآخر، إلى قوة أرفع من إطفاء الشهوة، وهذا وهو نادر. الإنسان الحر، أعني

الذي بلغ الوعي الذي يؤهله لرؤية غاية في الوضوح للنفس، وللآخـــر، وللحياة، يقدر أن يتصرَّف بذات الطبيعية مـــع الرغائـــب الجســـدية، والرغائب الروحية، والتوق إلى الأرفع والأسمى. أحيانًا يشعر المرء أن لا وحدة تجمع بين هذه الرغبات، ولكن الخلاق قادر، كالمايسترو الحـــاذق، على أن يُصدر لحنًا هارمونيًّا من كل تعارضاتها، لكن ليس يســـيرًا علـــى أبناء الحياة داخل البهو المضاء أن يعرفوا هذه الحقيقة التي بدت لنيتشـــة بسيطة وعلى مقربة منه، ربما كان نيتشة بالفعل يفتح نافذة على الحيـــاة ويسعى جاهدًا ليقفز طليقًا منها."

صافي

الثلج والنار

تسير "بشرى" مع "أسماء" في شارع طلعت حرب، الحر يجعلها تتخيَّل أن الناس كلها تعيش في مرجل هائل الحجم، يغلي على نار هادئة تحت وهج الشمس، لذا يتصبَّب العرق من الوجوه، ويترك البشر مستنفرين.

تسيران على عجل، الجميع يسيرون على عجل، هربًا من الشمس، لكن مجموعة من الشباب المتلكِّئ في سيره يرمي كلمات غزل طائشة، جعلت بشرى تُغير وجهة نظرها بأن الجميع هاربون من الحر. تلكزها أسماء من يدها، وهي تشير إلى واجهة أحد المحلات التي تعرض فستانًا مفتوح الصدر لونه وردي فاتح، بدا أنه من قماش حريري رقيق، قالت: "هذا يناسبك"، ألقت نظرة سريعة، للوهلة الأولى غمرها ارتباك أنها لبست هذا الفستان أو آخر يشبهه من قبل، لكن لم تكن بها أي رغبة للشراء. الحر المسلَّط عليها يدفعها للهرب بسرعة. هزَّت رأسها في حركة تدعو فيها أسماء لمتابعة المسير، فيما الأخيرة تكرِّر إعجابها بالثوب الوردي، الذي رأت أنه يناسب رفيقتها. لم تتمكن أسماء أن تتخلَّص من إحساسها الأمومي نحو بشرى منذ انتقالها للحياة معها بعد موت والدها، رغم أنها لم تكن تكبرها إلا بأعوام ثلاثة، إلا أن نزعتها الأمومية تطغى على علاقتها بكل تفاصيل الحياة.

"سوف نشتري هذا الثوب، تعالي." قالت بشرى بحسم وهي تخطو نحو المحل وتشد أسماء من يدها. أمام المرآة، في غرفة تبديل الثياب، حين ارتدت بشرى الثوب الوردي، سرت في داخلها تلك الرعشة مجددًا، برودة داهمت أطرافها، وشريط صور يعبر ذاكرتها. تمايلت قليلًا، هي متيقِّنة أنها رقصت في مكان ما وهي مرتدية ثوبًا يشبه هذا الثوب، لكن كيف يكون هذا حقيقيًّا!

ودَّت لو تقول لأسماء: "أكاد أجن، لا يوجد بين ثيابي ما يشبه هذا الفستان، لكني على يقين أني ارتديته من قبل".

يعبر من جانبهما سائح آسيوي نحيل، كما هم الآسيويون غالبًا، وجهه مربع فيه كثير من الطيبة. على ظهره حقيبة ضخمة، استغربت "بشرى" كيف بإمكانه حملها. السائح الآسيوي دفع إلى ذهنها شخصية "تاو تشين" في رواية "ابنة الحظ.". لكن.... لكن..

– "صافي" يذكرني بتاو تشين في رواية "ابنة الحظ"؟ قالت لأسماء.

– صافي... صافي. من هو صافي، من هو؟ ردَّت أسماء بنبرة حاسمة، كما لو أنها تنفخ بقوة على مكان ما كي تنفض عنه الغبار.

ولما لم تتمكَّن بشرى من الإجابة عن السؤال، أوشكت على تخمين أن "صافي" غير قابل للتعريف أو الوصف.

"تعبت، أشعر بالجوع والعطش." تقول أسماء هذا وهي تسبقها بخطوات..

أشارت بشرى إلى واجهة أحد الأماكن قائلة:

– "أحب هذا المكان كثيرًا، إنه أليف جدًّا، وحميمي"

– "كيف تعرفينه؟"

– "أتيت إلى هنا مع ناصر"

تحرِّك أسماء يدها في حركة تدل على انقضاء الأمر. تعتبر زمن ناصر انتهى من حياة صديقتها، لكن هذا المكان يُذكر بشرى أن شخصًا ما اسمه ناصر، عبر أيامها ذات يوم، قبل أن يُهاجر نحو عالمه الخاص، ورغم هذه الهجرة يظهر بين حين وآخر ليلقي عليها سلامه.

"ما علاقة الحب بعضلة القلب؟"

طرحت "بشرى" هذا السؤال، وهي تأكل سلطة خضراء، وسندويشًا يحتوي شرائح من ديك الرومي بالجبنة والخيار.

– "أحتاج أن يعانقني أحد ما. لديَّ حاجة إلى الاحتضان. قالت أسماء هذه العبارة وهي تضع يديها حول كتفيها .

تحكي أسماء عن فيلم وثائقي شاهدته في الأوبرا، أعدَّه مجموعة من الشباب المهتمين بالسينما عن فتيات تجاوزن الثلاثين ولم يتزوَّجن، وكيف حكت الفتيات عن رغباتهن باللمس من رجل، وكيف يستبدلن هذه الرغبة بالذهاب إلى الكوافير أو إلى جلسة مساج.

هل تُذكرها أسماء بالوحدة؟

أتراها تتحدَّث عن وحدهما المشتركة، لكن المشكلة بدت لبشرى في غياب الحنان وليس في افتقاد اللمس فقط، كادت تقول هذا، لكنها صمتت. من خلف الزجاج الشفاف تحت ناصر يعبر الشارع، يتصبَّب عرقًا، إنه يعيش معهم في ذات القدر الواسع الذي يغلي على نار هادئة، يغمرها إحساس بعطف كبير نحوه، عطف لا تدري سببه. لماذا عليها البحث دومًا عن مبرِّرات لما تحس به؟

بعد عودتها من دمشق، ومنذ بدأت الكتابة إلى صافي قرَّرت أن تكون حقيقية، تحاول أن لا تكذب أبدًا، لا تكذب على نفسها، ولا في مشاعرها مع الآخرين. كلَّفها هذا مشقَّة التواصل المستمر مع ذاتها الداخلية، ودفعها للتركيز على التنبُّه. لكن صافي كان بعيدًا جدًّا، كل ما يجمعهما حبال طويلة من الكلمات المكتوبة، ثم الصوت.

تفكر بشرى أن الصوت يطرح أزمة غياب واضحة للجسد، الجسد الغائب، الممعن في التواري بعيدًا، كما لو أنه موجود في بعد لا يمكنها إدراكه، لكنه موجود. صافي يعيش في مكان آخر، في جو بارد، لا يشكو من الحر، ولا من الوحدة والبرد، والحاجة الملحة للاحتضان.

واصلت أسماء تناول طعامها، وهي تحكي عن سأمها من العمل في الجريدة، التي تحذف نصف ما تكتبه في معظم التحقيقات الميدانية التي تغطيها.

سارتا معًا نحو محطة المترو. جلست بشرى في جوار رجل غافٍ على مقعده. وقفت أسماء على مقربة منها، تبادلتا ابتسامة صغيرة، وهما تنظران إلى الرجل شبه النائم. حين تتوقَّف عربة المترو في محطاتها لصعود وهبوط الركاب، يدلف بسرعة صبية صغار يبيعون أشـــياء متفرقـــة، حلـــوى، مناديل، كروت شحن للموبايل، نظارات للشمس، ساعات رخيصة.

خرجتا من المترو عند محطة "الملك الصالح"، سارتا نحـــو الشـــارع المؤدي بهما إلى "المنيل." كل شيء يغلفه غشاء من الغبار الرمادي بكثافه متفاوتة، الهواء، الطريق، السيارات، المباني، الشارع الرئيســـي المكـــتظ بالناس والسيارات. على ملامح البشر يختلط البؤس بالتعجُّل، جمـــيعهم يتعجَّلون شيئًا ما يريدون إنجازه بسرعة. قسماتهم معجونة بالتعب والتوتر البارز في تجاعيد وجوههم. الشباب أيضًا تبدو وجوههم مغضنة بتجاعيد سرية حجزت مكانها مبكرًا.

قالت أسماء، وهما تسيران نحو البيت:

– "هل تعرفين ماذا تحتاج القاهرة! خراطيم ماء تغســـل الشـــوارع والبيوت والناس."

فكرت بشرى أن الناس تغلي في قدر كبير، على نار هادئة، وتحـــت شمس عنيدة، يذوبون على مهل، من دون مقاومة. القاهرة تحتاج إلى ثلج يغطيها تمامًا، ثلج يوازن الأشياء لتعود إلى طبيعتها.. ثلج يخفف من حرارة الناس، يذيب طبقات السواد التي تغطي أرض المدينة، ليحل مكانها لـــون

أبيض ناصع، وتخرج من شقوق الثلج قاهرة يافعة ببرعم أخضر نقي يقاوم طبقات الشحم التي سدَّت مكان خروجه.

هل تحتاج المدن إلى النار أو الثلج كي تتطهَّر؟

ما الذي تحتاجه هذه المدينة كي تعود يافعة وقوية، بما أن النار على أرضها، تشتعل تحت مرجل حارق، يغلي البشر في قلبه حتى الذوبان!

امرأة تضع النقاب، تقترب منهما بحميمية تسلم على أسماء بألفة ثم تتجه نحوها، ترفع غطاء وجهها، لتؤكد هويتها.. لم تعرفا شهد من نبرة الصوت. وجهها محجوب بغطاء أسود في وسطه فتحتين للنظر. نحلت كثيرًا، بشرى تسألها بشكل متلاحق أسئلة كثيرة، عن حياتها الآن بعد تحوُّلها نحو مسار آخر، لكن شهد اكتفت بعبارات مبتسرة، لا تفيد بأي معنى.انضمت شهد إلى قافلة المنتقبات.تزوَّجت من رجل دين ثري، شيخ عربي أقنعها بضرورة اعتزال حياتها الخالية من الفضيلة، التوبة ونيل رضا الله، لتنضم إلى قائمة زوجاته، لتكون الزوجة الثالثة، أو الرابعة. اشترى لها شقة فاخرة تطل على النيل، وأنجبت شهد طفلة أطلقت عليها اسم كاميليا، على اسم أمها. أرادت بشرى أن تعرف كيف تكون الحياة من خلف حجاب أسود، لكن أسماء سحبتها من يدها مودعة شهد بلا أسئلة شائكة. ظلت بشرى تفكر كيف تحولت شهد كل هذا التحول في زمن قليل. ولم تجد أي إجابات واضحة، كما أن أسماء منذ زواج شهد واختفائها لا تحب الحديث بشأنها، لأن الأخيرة أخفت عنهما الكثير من الحقائق، وأخذت قرارها ومضت.

الشارع الطويل الذي يؤدي إلى شارع فرعي تسكنان به، بدا هادئًا على غير المعتاد، سارتا على الجانب الأيمن، صفحة النيل رائقة، النظر إلى الماء يوحي لبشرى بالسكون الأقصى. بينهما صمت، يقطعه صوت السيارات.

حين سارتا نحو شارع الصغير، عاد الصخب كله، كما لو أن الشارع الرئيسي مكان لا علاقة له بهذا الشارع الذي يوجد عند ناصيته محل للحلويات، ومقهى، وبائع جرائد يفرش بضاعته على الأرض.

داخل البيت، سارت كلٌّ منهما إلى غرفتها.

* * *

الفستان الوردي الذي لبسته بشرى، هو فستاني. لبسته، وأنا ذاهبة إلى "قصر اللؤلؤ." رقصت يومها، وضحكت كثيرًا، روحي لم تضحك إلا في مرات قليلة، لقد شاركت مناسبات مبهجة مع آخرين، لكن كل هذا ظل بعيدًا عن ملامسة قلبي. مضيت مع يوسف في الشوارع ليلًا، واستمعت إلى غناء حُسنى في شارع عماد الدين، حيث تغني ليلتي الخميس والجمعة. حُسنى وهي تغني أمام الناس غيرها وهي تغني لي في القصر، وتعلمني عزف العود. كنت أطرب لغنائها أمام الناس أكثر. كرهت حياة القصور لأنها حاصرت روحي، ومنعتني من الحياة، وجعلت روحي مسجونة. تمنيت الحياة مثل حسنى، هل كنت مجنونة! هي حرَّة أكثر مني، وأنا حبيسة، كانت قادرة على الغناء، والسهر، والحب، وكنت مجبرة على الكذب، والتسلُّل ليلًا في الخفاء كي أعيش اللحظات التي أريد.

ظل يوسف يحاول إقناعي بالسفر، لكني كنت أضعف من المواجهة، ظللت أراوح مكاني بين رغباتي وخوفي، ثم غادر يوسف إلى البعيد، مضى إلى ما وراء البحر، وظل بيننا سطور كلمات ظللنا نخطُّها لأعوام، قبل أن تشحب رويدًا رويدًا. ماتت أمي، وبقيت وحدي في القصر، أنتظر ما لا يأتي، وصوت نغمات العود يبعث بي مزيدًا من الشجن. هل لأني رغبت بالموت حينها، فسارع إليَّ...! لم أجد إجابة عن هذا التساؤل، رغم أن العدم يساعد على السكون، ويكشف المعرفة الخفية، لكن روحي ظلت شاردة لوقت طويل قبل أن تصحبها عين حكيمة تساعدها على إبصار ما حُجب عنها.

* * *

كانت بشرى تقرأ في رواية "أوليسيس" حين اتصل بها ناجي، وأخبرها أنه موجود في القاهرة لمدة ثلاثة أيام. اتفقا على اللقاء عصر اليوم التالي. عندما عاودت القراءة وضعت سطورًا بالقلم الرصاص: "لم تكن ولادتي بدايتي، إنني ما زلت أترعرع وأنشأ عبر ألفيات الأزل التي لا تُحصى، ما زلت أسمع بداخلي أصوات ذواتي السابقة، آه، لا تُحصى هي المرَّات التي سأخلق فيها مجدَّدًا، وهؤلاء الأغبياء حولي يظنون أن بوضع حبل حول عنقي سيخلصون مني."

لم يخبرها ناجي أنه شرب زجاجتين من البيرة قبل أن يأتي للقائها، لكن حين يغنِّي، أو يقرأ لها أبياتًا من الشعر، تعرف أنه في مزاج حسن. غادرا معًا "الأوبرا" بعد أن شاهدا فيلمًا فرنسيًّا، عبرا كوبري "قصر النيل" ثم اقترح عليها أن يصعدا في مركب، انعطفا يسارًا قرب تجمع

المراكب العتيقة. المراكبي الشاب سأل ناجي بإيماءة ذات مغزى إن كانا يودان أن يكونا وحدهما، لكنه أجاب بالنفي، فأحس المراكبي بالخيبة، وطلب منهما أن ينتظرا قليلًا ريثما يأتي بعض الركاب، انضم إليهما شاب وفتاة لهما مظهر السيَّاح وبرفقتهما امرأة متقدمة في السن بدت والدة أحدهما، ثم انضم إليهما شاب برفقة فتاة محجبة، حينها انطلق المراكبي بجولته، بعد أن قدم له ناجي سيجارة، ثم جلس فاردًا ذراعيه على حافة المركب، بشرى تجلس بجانبه، ظل كلاهما حريصًا على وجود مسافة بينهما. صفحة النيل صافية، ثمة التماعات شفيفة بين الغروب والظلال المنعكسة على النهر، تُغوي بالتأمُّل والسكون، الهواء شفاف كما لو أن لا صلة له بهواء عوادم السيارات، سكون النيل بعيد عن الضجيج والصخب، برهة من الزمن المسروق، وصوت ناجي فيه شجن وحنين لضالته التي لا يملك يقينًا نحوها.

اقترب منه الشاب الأجنبي برفقة صديقته، تكلم الشاب معه بعربية مكسرة، بادلتهما بشرى الابتسام، وهي تنظر نحو السيدة العجوز التي ظلت تجلس عند زاوية المركب، ذكرتها بالأشهر الأخيرة من حياة أمها، حين كانت تمضي وقتها صامتة، وكأنها تستعد للغياب، كان في تلك المرأة ذات النظرة المتأهِّبة التي عرفتها يومًا، نظرة لا يمكن أن تحضر إلا عند الموشكين على الرحيل، وهي تعرف هذه النظرة جيدًا، شاهدتها في عيني أبيها على سرير مرضه، وفي شرود أمها وهي ساهمة تبحث في زمن مضى بعد عودتها إلى القاهرة.

الفتاة والشاب اللذان يجلسان في زاوية القارب، يتهامسان، بدا لهــا أن ثمة وعودًا بينهما تطلق في الهواء، وعود بدأت هنا من هــذا القــارب الصغير، الذي تصدح فيه أغنيات شعبية شائعة جــدًّا، لــيس فيهــا أي رومانسية، ورغم هذا لها جمهورها. الفتاة المحجَّبة تضــحك، والشــاب يمسك يدها، وهي تترك يدها بين يديه، وينظران نحو النيل. هناك حلم ما، فكرت بشرى وهي تنظر إليهما إن كان ثمة مكان للأحــلام؟ الأحــلام تحتاج إلى طاقة حيَّة من التفاؤل، والأمل بغد أفضل! ودَّت لو تسألهما عن منبع الأحلام، وكيف لها أن تستمر.

غمرت بشرى قشعريرة دفعت جسدها للارتجاف، شدَّها ناجي نحوه قليلًا بحركة عفوية وهو يسألها: "انت بردانة؟ ." هزَّت رأسها بالنفي وهي تبتسم له.

اعتادت بشرى التجوال برفقة ناجي، تجمعهما ألفة تكشــف ذاتهــا بتلقائية نادرة، ودفء أشياء كثيرة يشتركان في حبها. مكتوب في عينيهما حكاية مؤجلة، لكن كليهما لا يبصرها. إنها حكاية عتيقة جدًّا، ستحدث في يوم ما، بعد انتهاء زمن الصخب الأول، زمن الارتبــاك والضــجيج. كلاهما يخاف الاقتراب من الآخر، مخافة فقده. في الشارع حين يكونــان معًا، ينظر إليهما الناس على أنهما حبيبين، وكأن ما يختبئ في أعينهما، وما سُطر على جبينهما مقروء من الجميع، لكنهما لم يبصراه بعد.

كان ناجي قادرًا على دمج الفن بالحياة، ربما هذا ما قــرب بينــهما أكثر، ومن دون قصد كانت تعقد المقارنات بينــه وبــين ناصــر، بــين

ازدواجية الأول واضطرابه، وبساطة الثاني وتلقائيته التي تربكهـا حـد التراجع، وحد التفكير إن كان حقًّا كما يبدو. كانـت تقصـي هـذه التساؤلات كلما وجدت نفسها متورِّطة بها، ترى أن جراحها لم تُشـف تمامًا، وأن بقايا حكاية ناصر لم تنته بعد، يعذبها في أوقات كثيرة حنينها إلى جسده، مدركة أن هذا الحنين سيعيدها لدائرته المؤذيـة، لأن ناصـر لا يمكنه أن يتغير، وفي أوقات كثيرة كادت تستسلم لهنـات الحـنين. ذات مساء وجدته جالسًا ينتظرها عند باب الشقة، مثل طفل صغير فقد أمـه، قال إنه اشتاق لها، وكاد يبكي، حينها تحتار هي في تفسير حالات ضعفه، مع تذكُّرها للأوقات التي كان يمارس فيها أنواعًـا مـن السـخرية، أو اللامبالاة، أو التجاهل. كيف يمكنها الوثوق به من جديد. ليلتها كان من الممكن أن تستسلم للعودة إليه، لولا جرس صغير ظل يرن في ذهنها منبهًا بما كان. قدمت له الشاي بالفنجان الأبيض الذي يحبه، ووضعت طبقًا من البسكويت المغموس بالشوكولا الذي تعده أسماء، رشف الشاي ثم غمس به قطع البسكويت وهي تجلس قبالته، طلب مـن بشـرى الاقتـراب للجلوس بقربه، ثم مال نحوها واضعًا رأسه على صدرها، ظلت سـاكنة، ثم أبعدته بلطف، تنبَّه هو إلى حركتها، نظر إلى وجهها مباشرة وهو يكرر السؤال الذي طرحه مسبقًا: "أنا آلمتك... أنت لسة زعلانة مني؟" وهـي كررت ذات الإجابة: "لا مش زعلانة، بس صعب نكون سوا مرة تانية." هز رأسه مثل طفل يعرف أن أمه تحبه لكنها تعاقبه على خطأ ما ثم قـال: "آه عارف.. عارف" ووقف يستعد للمغادرة.

في العلاقة مع ناجي لا توجد تلك المساحات من المناورة، من الشد والجذب والاضطراب، ثمة شيء أكثر عمقًا واتساعًا، من التعاطف، أو الحنين، أو الغضب والرضى، أو الرغبة في الإيذاء إشباعًا للذات ثم تتالي ثنائية التبرير والاعتذار.

يحمل ناجي الكاميرا، ويدير عدستها لتسجيل كل ما يود أن يسجله في هذه السنوات.

يصوِّر ناجي امرأة عجوزًا تبيع الخبز في الشارع، وجهها محفور بالتجاعيد البارزة، صبيانًا وبناتٍ، مشردين، بثياب رثة، يجتمعون تحت "كوبري إمبابة" يتقاسمون المال فيما بينهم، وفي إحدى الزوايا، يشمون الكلة. رجل كسيح يستجدي المارة، امرأة شابة تبيع المناديل.

تسير بشرى برفقته، بينهما تواصل لا يخبو، فهما قادران على الكلام من دون أن يخفت بينهما دفء الحوار. فالعالم كما يرى ناجي مليء بالحكايات والأهوال والأفلام والموسيقى التي تحتاج أكثر من عمر كي يحكيا عنها.

لكن ظل ثمة حاجز ما يقف بينهما، ناجي لم يتمكن من نسيان تخلِّي شيماء عنه بعد قصة حب سنوات الجامعة، وتفضيلها لغة المادة على لغة الحوار، ثم زواجها وانتقالها إلى الخليج. أما بشرى فلم تكن متأكدة أن ما يجمعها مع ناجي أعمق مما ظنته يومًا يجمعها مع ناصر، وكانت النتيجة

زواجًا فاشلًا. اعتادت مع ناجي، أن يحكيا بعمق عن مشاعرهما المضطربة في رؤية الآخر، وعن مقدار الألم الذي تركته تلك الحكايات المبتورة.

سفر

إنه الخريف، السحابة الرمادية ساكنة في سماء القاهرة، كما لو أنها ثابتة في مكانها ولا تتحرك. لا توجد أمارات للخريف إلا في ملامح من الركود الكسول في الهواء الذي يصير دافئًا مع تراجع سطوة الشمس.

وكأن ميدان رمسيس صورة مصغرة عن مصر. هذا ما اقتنعت به بشرى وهي تعبر الشارع، لتتجه نحو "محطة مصر"، كي تركب القطار المتجه إلى الإسكندرية. واجهتها صورة كبيرة لأحد الدعاة الشباب. ابتسامته واسعة، توحي بالثقة بالنفس، وبجانب الصورة اسم برنامجه وعبارة تعد بالخلاص، ونيل التوبة. قرب صورة الداعية توجد صورة كبيرة لممثل كوميدي شهير، يقدم إعلانًا عن فيلمه الجديد، فيلم آخر من سلسلة الأعمال الكوميدية التي تستهدف فئة ما.

سافرت بشرى إلى الإسكندرية كي تلتقي صافي، أخبرها أنه جاء ليتمِّم البحث ويزور مقامات الأولياء، في طنطا، وأسوان، والإسكندرية. قال لها إنه لن يتمكن من القدوم إلى القاهرة، واقترح أن يلتقيا في الإسكندرية. في غرفة صافي تعانقا طويلًا ، حين احتضنها تذكرت رائحة أبيها، كان يمنحها حنانًا نقيًّا، ومحبة راسخة لا تحمل شكًّا، وكانت مشوشة جدًّا في تلقِّي عاطفته، لكن في حالة الصمت التي غرقت بها وهي معه، كانت قادرة على التأكُّد من وجود تلك المسافة التي تفصل بينهما،

وتلك الصلة الجذرية الأكيدة. غمرهما صمت لدقائق، كانت تكتب لـــه أفضل مما تتكلم.

جلسا في مقهى "أتينوس"، يواجههما البحر، ورجل يجلـــس علـــى الحنطور يعرض على المارة أن يأخذهم في جولة. عشاق يســـيرون علـــى الكورنيش، يمسك بعضهم بأيدي بعض ويخفون الحب بين طيات الثياب. هما لا يشبهان العشاق، بل كان في جلستهما سكون غـــامض، كانـــت عاجزة عن تفسيره. تود الالتصاق بصافي، ليس لرغبة حسية، بل شـــوق يحركه حنين يشبه نار جمر مغطى بالرماد.

منذ عرفت صافي، اتضحت لها صور مجهولة من حيـــاة نورجهـــان، صارت تعرفها أكثر، وتحس بالأماكن التي وطئتها، تنتابها ارتعاشة في قلبها حين تسير قرب ضفة النيل، وحين تمشي في "الزمالـــك"، أو "المنيـــل"، يغمرها سكون، يكشف عن صلة بعيدة وغير مفهومة.

وجه صافي كان يمر غامضًا ضمن الخيالات المتقطِّعة، لكن وجهـــه في ذاك الزمن أكثر شبابًا وحيوية مما عرفته في الواقع. ثمة أمر ما يربطه مـــع نورجهان، حكاية عميقة تجمعهما، تسبب ألمًا، وغربة، وارتحالًـــا. تـــرى نورجهان تبكي في غرفتها وحيدة، تنتظر رسائل قادمة من بعيد، صافي في بذلة سوداء أنيقة، وفي مشهد آخر تراه في زي طبيـــب، يجلـــس قـــرب سريرها وهي مريضة، بين هذيان وصحو، تأخذها ارتعاشـــات الحمـــى، تصحو قليلًا، تنظر إلى وجهه ثم تغيب.

عند العصر، سارا معًا نحو "محطة الرمل"، ثم مضيا إلى شارع "صفية زغلول"، تناولا طعامهما في مطعم يوناني قديم كانت ترتاده مع عائلتـــها كلما زاروا الإسكندرية. سارا في تعرُّجات وطرق صغيرة تبدو غير مرئية لمن لا يعرفها، اصطحبت صافي إليه لأنه يحمل عبقًا عتيقًا، داخله معـــتم حتى في وضح النهار، أضواء تنبعث من مصابيح خافتة على الجوانـــب، طاولات خشبية مربَّعة تشبه طاولات الأكواخ، وتوجد فيه نافذتان قرب المدخل، واحدة على اليمين والثانية على اليسار، تتدلَّى عليهما ستائر من قماش الأورغانزا المخرم، مما يزيد المكان عتمه. جلسا في طاولة بعيدة في ركن قصي.

تناولا وجبتهما في هدوء، شربا نبيذًا أحمر، أخبرها صافي أنه سيذهب غدًا إلى مقام "سيدي بشر"، وسيتحدث مع الناس هناك عن معتقـــداهم حول ساكن المقام، ثم أخبرها أنه سيسافر إلى طنطا ليزور مقـــام الســـيد البدوي ويطرح على الناس ذات الأسئلة، حكت له عن أمها في أيامهـــا الأخيرة، حين مرضت، وكيف استيقظت وأصرت على الذهاب إلى طنطا لتزور العارف بالله السيد البدوي، وأنها اصطحبتها إلى هنـــاك، حيـــث طافت في داخل المقام، صلت العصر، وبكت كثيرًا، ثم طلبت منها العودة للقاهرة. لم تعرف لم أصرت أمها على ذاك السفر ولم بكت، فقد ماتت في تلك الليلة.

كان الوقت مساء. حين أوصلها صافي إلى محطة القطـــار، عانقهـــا بوجل، ثم مضى بعيدًا.

صوت عجلة القطار تمضي، ظلال العالم الخارجي تعبر مثل الأشباح بسرعة أمام عيني بشرى، وهي تفكر ماذا يعني هذا التقاطع، ثم العـــودة للسير كخط مستقيم، ذاكرة الخطوط تحفظ تقاطعاتها لأنها تقود إلى تحول ما في قناة ذاكرتها الممتدة.

لم تكن تعرف ما الذي تريده من صافي. هو يقــول لهـا "نحـن في أعماقنا نعرف كل الأشياء" لكن بالنسبة لها تركها اللقاء مع صافي بـين حالتين، متناقضتين ظاهرًا، ومتحدتين ضمنًا. حنين غائر يشـبه الزلـزال يحرك أرضها من الطبقات العميقة إلى السطح، ثم سكون وطفو، كما لو أنها ريشة تعوم في سمائها السابعة. عند سماع صوته يصير قلبها مثل وردة فل مسحوقة بين أصابع مجهولة، كما لو أن يد الله تمسك قلبها كي تتعلم اليقين.

ليس الحب ما أحست به نحو صافي. الحب حالة مرهونـة بأسـباب الاستمرار والزوال، لكن ما يربطها به أمر آخر يجعل ذاكرتها وذاكرتـه بين طرفي خيط واحد. لكن كان هناك ما يتوازى مع فكـرة الحـب ولا يتقاطع معها. إنه التوق للتوحُّد مع صافي، لكن هـذا التـوق لم يتخـذ الشكل المألوف في العلاقة الجسدية بين رجل وامرأة، بل كان يشبه حالة انجذاب النهر إلى مصبه، والنور إلى منبعه. وضـمن محدوديـة الجسـد سيكون ثمة قصور عن التوحُّد التام لأن الصلة أعمق بكثير من لحظـات ذروة وهبوط، وأبعد أيضًا من فكرة الحب وإيجاد هوية لحياة مشـتركة. ربما أدرك صافي كل هذا منذ البداية، وتأخَّرت هي في إدراكـه. كانـت

ترى روحه وكان يرى روحها. وكانت الحاجة الملحة في العمق تكمن في رغبة التلاصق بين الروحين، وهذا هو المستحيل. لذا كان على كلٍ منهما أن يحرق المشاعر المألوفة والمتشابهة، أن يتخلص منها تمامًا، ولا يُبقـــي إلا على جوهر أصلي لا يتم المساس به.

ربما لكل هذه الأسباب كان عليَّها أن تقصيه.

في الليل، حين نامت عاودهّا خيالات القصر، كان الضباب يلفُّـــه هذه المرة، وظلال سوداء تحيط به مثل دوائر كثيرة، تصغر وتكـــبر مـــع همهمات حزينة، وكما لو أنها روح تائهة تجول في القصر الخالي، تنشـــج بحزن في تحليقها البعيد، ثم تعود فجأة لتسكن في هذا الجسد.

ذاك الحلم، جعلها تستيقظ هلعة، تناولت زجاجة المـــاء وراحـــت تشرب بشوق، كما لو أن داخلها يحترق. وضعت على يدها قليلًا مـــن الماء مسحت وجهها وهي تذكر عبارة قرأتها يومًا، يفيد مضمونها بأنـــك حين تخاف من أمر ما، ابقَ مكانك وواجهه. لكنـــها في نفـــس اللحظـــة سخرت من تلك العبارة، لأنها لا تعرف من ينبغي عليها أن تواجه، وهل من الممكن مواجهة الكوابيس والأحلام، والتخيُّلات، وظلال الحكايات!

* * *

بعد موتي عرفتُ حكايتي السابقة.

يوم كنتُ سولاي، ويوم كنتُ نورجهان.

بشرى تفكر إن كنتُ ذاكرتها، ماضيها القريب، أمسها المفصول عن يومها بموت وميلاد. هل هذا مهم الآن؟ أتراني أعرف حقًا، لكني عاجزة عن البوح، بشرى تغرق في حيرتها من حكايتي، من حكايتها؟

كيف أكشف لها سرها وسري، وهي لم تصل بعد ليقينها الخاص بأني وهي واحد. في العتمة، في لحظات الظلام الشديد، تنادي عليَّ من دون اسم، من دون صوت، الأسماء تختلط عليها، والأصوات، والأحلام، فلا تستطيع التمييز حقًا، ورؤية امرأة كهلة كنتها، كانتها هي، لا تتمكّن بشرى من رؤية فتاة فقدت حلمًا حين كانت يافعة جدًا، ولا تعرف أن ثمة امرأة عجوزًا هرمة تسكن فيها.

في اليوم الذي تدرك فيه أن كلهن هي، وأنها كل هؤلاء النساء ستشاهد ذاكرتها عن كثب، وتسد ثقوبها المفتوحة بعجينة صلصال لينة. حينها ستجدني، ستؤمن بحقيقتي وديمومتي، ستؤمن بديمومتها وحقيقتها العظمى، من دون أن تسأل طويلًا عن جذورها القريبة.

الحدس

يتوجَّب عليها أن تفتح الباب. هي تـــراوح في مكانهـــا والألم يكمن في المراوحة بين حالتين، يقـــين الحـــدس، وشكوك العقل.

كانت عالقة في زمن آخر، في زمان ومكان غير الذي تحياه الآن، وهـــذا شيء مرهق للروح، تلمع في ذاكرتها أماكن غير موجودة، وأشياء لا يحس بها سواها، ولا تملك برهانًا عليها.كل التفاصيل التي تذكرها لا تـــرتبط بزمن الآن: القاهرة، شوارعها، بيوتها، ســـياراتها، وجوههـــا، مقاهيهـــا، محلاتها... حتى الثياب والطعام، ما يسكنها ويشغل ذاكرتها بـــات غـــير موجود، وحدها الأشجار ظلَّت كما هي، ربما ازدادت هرمًا.

كان لها دولاب ملابس آخر، بل كان عندها أكثر من غرفة وأكثـــر من دولاب فيها أثواب طويلة من الحرير والساتان والأورغانزا والمخمل، وقبعات، وأحذية رقيقة، ومعاطف من الفراء، وقلائد من الذهب وعقود من اللؤلؤ.

ما زالت تسمع صوت مياه النهر في سكون الليل قـــرب شـــرفتها، وضربات مجذافي صياد عابر توحيان لها بالأمـــان. العتمـــة والســـكون، يشغلان مساحة من ذاكرتها داخل ذاك القصر، وغرفة مظلمـــة تكـــاد

ظلمتها تشبه غرفة تحميض الأفلام، غرفة تسمع فيها صـــرخة، وتـــرى التماعة نصل سكين.

وفي الخارج، خارج القصر الكبير تمضي مع رجل غريـــب، يســـير برفقتها. وئام متصاعد يسيطر على الحالة بينهما. تمضي معه بأمان لتعرف وجوهًا أخرى للمدينة، وشوارع لم تزرها ولم تعرفها من قبل. من يكـــون هذا المجهول؟ ما اسمه؟ ولِم تسير معه بتلك السرية! كأنها لا تود أن يراها أحد برفقته!

لكن كل ما يمكن أن تقوله أو تبحث عنه من المحتمـــل أن يكـــون كذبة!

كان عليَّها البدء برحلة البحث. بدأتها بالوسيلة المعرفيـــة الأســـهل "الإنترنت." كتبت عبر "غوغل" عدة كلمات كلها تـــؤدي إلى مـــدلول واحد يتعلق بالحيوات السابقة، لكن لم تجد فيها ما يمنحهـــا ردودًا علـــى أسئلتها. وعلى ما يحدث معها، وما تراه من ذكريات. وجدت حكايـــات عن أشخاص يفوقونها في تذكر حيواتهم السابقة،يتذكرون أين عاشـــوا، ومع من، وكيف ماتوا، ولِمَ! يسردون ماضيهم بسهولة تبعث بها مزيـــدًا من الحيرة بدلًا من نيل اليقين.

كل تلك الحكايات ظلت غائمة بالنسبة إليَّها، وتقـــع في احتماليـــة الشك.

"النفس لا تموت." وجدت نصوصًا بجانب هذه العبارة تحكي عـــن الاعتقاد بالعودة للحياة في جسد جديد بسبب غاية ما لم تتحقق في الحياة السابقة، وأن الروح تنتقل إلى جسم بشري آخر بعد موتها مباشـــرة، أو بعد موتها بوقت طويل أو قصير، فالزمن نسبي.

لكن ما الذي يجعلها تذكر حياة أخرى إلى هذا الحد– حياة امـــرأة تدعى نورجهان، ترى مسراتها وأوجاعها، آلامها وأفراحها الصغيرة.

هل تسكنها روح أحد الأجنة الذين فقدتهم نورجهان، هل الأجنـــة الذين يموتون قبل أن يولدوا يتم منحهم الفرصة للعـــيش مـــن جديـــد؟ شغلتها هذه الفكرة حتى صار في داخلها ما يشبه اليقين بأنها ونورجهـــان واحد. لكن كيف يمكنها إثبات هذا أو نفيه، كيف يمكنها إلغـــاء حيـــاة ماضية ، والماضي يزاحم الواقع، إلى حدِّ الرغبة باكتشافه وتتبعه!

من أين أتت هي وليس لديَّ سوى الخريطة البيولوجيـــة لقـــدومها. لكن من أين أتت نواة روحها، وأين ستنتهي؟

تحاول مغالبة تلك الأسئلة، لكنها تشتتها، وتتركها في دهشـــة مـــن مسيرة الحياة التي دفعتها عن كثب لمواجهة صور شاحبة صارت تقتـــرب وتتشكَّل، وتكتسي ملامح وجوه وأجساد، تمضي في مساراتها، تتقـــاطع بين ماضٍ معتم، وحاضر غامض، أرادت له الكشف، وما انجلى. تعبـــت بشرى من هذه المراوحة، غير المعقولة، ومن عـــيش الواقـــع في دائـــرة

الاحتمالات والظنون. فالظنون وحدها لن تكون أبدًا طريقًا للحقيقة. من أين ستبدأ الرحلة، وأين ستنتهي، وكل ما تملكه في يدها مجرد أسربة!

أرعبتها فكرة أن الروح لا تموت، بل تأخذ جسدًا آخـــر أعلـــى أو أدنى مرتبة وفقًا لأعمالها.كيف كانت أعمالها في حياتها الســـابقة! وهـــل صحيح ما يرد في النصوص الهندية القديمة عن حقيقة "الكارما" التي تحكم الحياة، وهل الكارما قانون قاسٍ لا يرحم، أم في أعماقه تفـــاؤل يشـــي بعدالة الكون ونظامه؟

في حكاية قديمة كانت تقصُّها عليَّها جدتها، أن الأمير الشاب الذي لم يجد عروسًا تُرضي غروره، مضى إلى جزيرة الجنيات علَّـــه يعثـــر علـــى ضالته، وهناك شاهد في البداية جنية عجوزًا قبيحة جدًّا، بوجه أصـــفر، وعظام بارزة، تجلس أمام مرآة كبيرة مرسوم عليها طبقات الناس جميعًـــا، من الملوك إلى المتسوِّلين، في أول المرآة صبية وفتيات يمرحون، وفي وسطها أناس منهمكون في حياتهم يعملون، يغنون، يرقصون، يكدون، يلعبـــون، وفي آخرها أناس يجلسون حزانى مطرقي التفكير في حيواتهم، العجـــوز في يدها عصا كبيرة، تحركها في الهواء وعيناها مثبتتان على صفحة المرآة، ثم فجأة تقهقه بغيظ وهي تهبط بالعصا على المرآة لتتناثر قطـــع الزجـــاج، وتتعالى في الأفق أصوات صيحات وعويل، بكاء ونحيب، لكن سرعان ما تتشكَّل المرآة من جديد، وكأن هناك يدًا خفية تعيد التشـــكيل. وحـــين انتبهت الجنية لوجود الأمير الذي انعكست صورته في المرآة الجديـــدة، أبعدت عينيها لثوانٍ كي تصيح به: "امض من هنا أيها الشقي، أعرف ما

جئت تبحث عنه لكن ليس بمقدوري مساعدتك، اذهب إلى أختي، فأنا الموت وهي الحياة. وحين يذهب الأمير إلى الجنية الأخرى، يجد امرأة ضريرة تجلس قرب مغزل وتدير حول مغزلها خيوطًا من الذهب والفضة والحرير، وأمامها مغازل أخرى لا عدد لها عليها خيوط من الصوف والكتان والقطن، وكلما انتهت الجنية من مغزل في يدها تناولت آخر، وبدأت تغزل من جديد. وعندما طلب منها الأمير مساعدته لأنها الحياة، وقادرة على منحه ما يريد، قالت له: "ما أنا إلا امرأة ضريرة، لا أعرف ماذا أعمل، المغزل الذي تناولته عرضًا يحدِّد مصير كل من يولد في هذه الساعة، وهذا الخيط الذي لا أراه ترتبط به السعادة والشقاء، ولا أستطيع تبديل شيء، أو نقل خيط من مغزله، فامض في حال سبيلك."

هل القدر هو المرآة، أم أن الروح تسكن حبيسة في ذاك المغزل المجهول الخيط، تظل هناك، حتى تنقضَّ على لوح المرآة تلك العصا؟

أو أن الأجساد تمضي حية بسحر خفي، وحين يزول ذاك السحر ينتهي كل شيء؟

هل ذاك السحر هو الوعي، فيه الذاكرة، والعقل، والحواس! وهل من المعقول أن تتلاشى الحياة مع انطفاء الوعي، وتحلل الجسد. توضع نقطة نهاية على كل الذكريات، والآلام، والأفراح، والأمراض، والمسرات، والأمنيات. يُطوى كل ما كان بضربة عصا شقية، ثم يعاد تشكيله من دون إبصار، ألهذا السبب تتكرَّر كل الأحداث، ويتشابه البشر في أوجاعهم، وحكاياهم، ومسرَّاهم، لا شيء يخرج عن صفحة

المرآة، ولا عن خيط النول الذي اختارته يد ضريرة، ويكون الحظ في أن يكون ذاك الخيط من الحرير أو الصوف.

لكن كيف لها معرفة الخيط الذي يشكّلها، والخيط الذي شكّل حياة نورجهان، وإن كانتا نُسجتا في مغزل واحد، هل انقطع خيط حياة نورجهان من يد العجوز الضريرة، فوصلت خيطها مع خيط بشرى؟

* * *

الموت هو عالم الظلال، وربما متُّ لأعرف عن كثب عالم الظلال. أن أكون مجرد نقطة عائمة في الفراغ، ربما كنت هكذا، لا أذكر تحديدًا ماهية ما كنت. لكني ولدت مرة أخرى، في جسد جديد وروح عتيقة، محمَّلة بذاكرة بعيدة تترك ثقوبًا سوداء في موضع الأماكن القصية التي لا تستطيع ذاكرة الجسد الحي تذكرها، يتعذب ويتعذب لأن ذاكرته ممحوٌ منها أجزاء كثيرة، مثل مخطوط قديم جدًا أزيلت منه سطور مهمَّة وتركت مكانها فراغًا مبهمًا.

ربما لكل هذه الأسباب ظللت مجرد نقطة معلَّقة في فراغ الكون قبل أن أولد من جديد، قبل أن أستحق هبة الحياة الثالثة. وربما ظلت كتلة وعي مني جامدة، وصلبة، ويقظة لرغبتها في الحياة مرة أخرى. لذا ظللت طافية في المجهول حتى لحظة عودتي.

بشرى تذكر أطيافًا عني، وما زلتُ عاجزة عن دفعها لرؤية العالم بقلب مفتوح، قلب كبير لا يضع الحزن ستارة سوداء بينه وبين العالم، فيحجب عنه المسرَّة. الحزن الأسود الذي سكنني، ها هو يسكن جزءًا

منها. الحزن الأسود يشل عن تحقيق أي فعل، وأي غاية، يفتت الأيام بمكر، ويحجب عن الروح البصيرة.

تشابه، تماس في الزمان والمكان، تفاصيل تحرِّك الرماد من القاع إلى السطح، لكني في طوافي البعيد، لن أتركها تنبش في تراب يغبش رؤيتها، فلا تميز بين حقيقة وسراب. وفي اندفاعي نحو وهج الارتباط، أغزل خيوطًا جديدة، أدفعها للتذكر لإبصار الحقيقة فقط. لها... أم لي...! لا يهم كثيرًا، لأنها عاجزة حتى الآن عن السير بتوازن نحو تداعٍ رشيد. هي تعوم في خيالاتها وسط نقاط سوداء تحجب عنها نورًا أبيض شفافًا، سيساعدها إن رأته على الارتباط بجوهرها أكثر، والنفاذ من المقارنات، ومحاولات الفرار.

* * *

كما لو أنها استعذبت حالة البحث تلك، وفق عبارة صوفية قرأتها ذات مرة يفيد معناها أنه خلال طريقك إلى هدف ما لا تفكر في الغاية من الهدف، لأن الطريق يصير هو الغاية. لكنها لم تتمكَّن من تسليم تفكيرها إلى كونها عاشت حياة سابقة. إذ لو فعلت هذا عليها التوقُّف عن البحث. مضت متوغِّلة في عوالم حملت لها غموضًا ودهشة، قرأت: "أن النفس لا تموت، بل يموت قميصها الجسد، وينتقل إلى قميص آخر، أي جسد آخر."

مثل هذه العبارات كانت تجعلها تتوقف لتفكر في حياة نورجهان، وإن كانت هي نورجهان، ونورجهان تعيش عبر جسدها الآن؟ وإن كانت عاشت تلك الحياة الأليمة في ذاك القصر البارد على ضفة النيل،

أين هو ذاك القصر إذن؟ هل تم تدميره؟ هل تحول إلى مبنى حكومي من تلك الأبنية الأثرية الضخمة التي تم تجديدها؟ أم أنه ظل مهملًا مثل كثير من القصور التي ترى الخراب ينخر مساماتها؟

أين مكان ذاك القصر إذا كان موجودًا حقًّا؟

ألا ينبغي أن تجد له دليلًا واقعيًّا، يجعلها توقن أنها عاشت فيه من قبل؟

خلال بحثها، وجدت أن الروح تعود للحياة كي تُتِم أمرًا ما لم تتمكَّن من إنجازه في حياتها الماضية، أو أن تلك الروح ماتت عنوة، وعادت لتكشف حقيقة ما.

هل لا مجال للاختيار إذن؟ فكرت، كيف يكون البشر مجبرين إلى هذا الحد في تكرار آلامهم وأحزانهم، وعلاقاتهم، وأمراضهم مرات ومرات. أي سخط هذا، لا يملكون فيه الرفض أو القبول. أحسَّت بنفور من هذه الدورة المستنزفة للحياة والموت، إن كانت حقيقية بالفعل.

تحسَّست بشرى صدرها الأيمن مكان وجود تلك الوحمة، ثم توقَّفت متأمِّلة في عبارة تقول:

"إنه لسر العالم أن كل الأشياء باقية ولا تموت، بل تحتجب قليلًا عن الرؤية ومن ثم تعود ثانيةً، لا شيء يموت، الإنسان يظن أنه يموت ويتحمَّل مهزلة المآتم والتعازي، وها هو يقف متخفِّيًا في مكان آخر ينظر من النافذة حيًّا معافى."

أحست أن ثمة شيئًا مثيراً في هذه العبارة، هل يقف الموتى مستخفين هنا أو هناك، تاركين الأحياء حزانى على فقدهم؟

تعلمت من صافي أنه من الطبيعي لبعض الأشياء أن تخفت ثم تعود للظهور ثانية، ولكنها لن تكون نفسها أبدًا.. لذا لم تكن تتوقَّع حدوث الأمر نفسه أو تكراره. لذا كانت تدع الأشياء تكون كما هي، كما النهر الجاري، الماء هو الماء لكنه جارٍ ويتغيَّر على مر الثواني. كان صافي يقول لها: "لا يمكن الشرب من نفس الماء كل مرة لأنه يجري حتى لو كنا في نفس البقعة من النهر."

* * *

لم يعد ثمة ما ينظم حياتها سوى أيام العمل، تذهب إلى عملها في كثير من الأحيان، من دون أن تنال ساعات نوم كافية. وفي أحيان أخرى كانت تغفو، ويظل النور مضاء، وجهاز الكمبيوتر إلى جانبها على السرير.

ذات مرة، حين فتحت عينيها، كان الظلام يُغرق الحجرة تمامًا. للوهلة الأولى لم تدرك أن الكهرباء مقطوعة، خمنت أنها ما زالت في قلب الكابوس. بدأت تدرك ما حولها، أصوات السيارات في الشارع تعيدها للواقع، وظلال أنوار شاحبة تنعكس من بعيد، أحست بامتنان للعالم الذي لا ينام في قلب القاهرة، ويتكفل بحملها إلى الحقيقة من جديد. تثاءبت، ثم ظلت ساكنة في الفراش قبل أن تمد يدها في الظلام وتسحب جهاز هاتفها المحمول لتضيء طريقها. بحركة متثاقلة وضعت ساقيها على الأرض،

كانت ترتدي ثوب نوم قصيرًا، انحسر حتى أعلى فخذيها. سارت على ضوء الهاتف المحمول حتى المطبخ، فتحت درجًا صغيرًا تناولت منه شمعتين، أشعلت شمعة، وضعتها في الصالة، وأخرى أخذتها معها إلى غرفتها، حين وضعت الشمعة على الأرض، صارت الظلال تنعكس على الغرفة، فتبدو التفاصيل مضخمة، عادت للجلوس في سريرها، مقررة أن لا تنام، خافت أن يعاودها الكابوس: يد مجهولة تمتد إليها، وتطعنها في صدرها، مكان واسع ومترف، يغرق في ظلمته، وشهقة حادة ما تزال حبيسة صدرها من ذاك الوقت. ارتجف جسدها قليلًا، لتجرب الحلم في صورة أخرى، تنعكس صورتها في المرآة، قاتل مقنَّع يأتي من الخلف، يلف يده اليسرى حول عنقها، وبيده اليمنى يطعنها في صدرها، وهي من هول الصدمة لا تقوى على الصراخ، تذكر فقط لمعة العينين في الظلام، تحدقان في الشبح الذي انعكس ظله في المرآة.

هل تلقَّت طعنة في صدرها حقًّا؟ هل كانت ميتة بسبب تلك الطعنة؟

وضعت يدها مكان تلقي الطعنة، إنه ذات المكان الذي توجد فيه علامة بعرض أصبعي اليد، قالت عنه أمها بأنه ندبة وحم، حين اشتهت وهي حامل أن تمص قصب السكر، ولأنها لم تفعل فقد ظهر في أعلى صدر بشرى الأيسر خط يشبه قطعة قصب السكر، لكن في هذا المكان أيضًا أحسَّت بشرى أنها تلقت طعنة سكين حادة.

مع أذان الفجر، فتحت النافذة، وألقت نظرة على الخارج. الشارع ساكن تقريبًا. بعض المارة يمضون نحو الجامع، السيارات التي تمر قليلة جدًّا، وبائع الفول بدأ يجر عربته ليقف عند أطراف الشارع.

عاد النور، فغمر الغرفة. نظرت إلى الزاوية حيث تكون السلحفاة العجوز التي أحضرها لها ناجي من الساحل الشمالي، ولما لم تجدها خمنت أنها في إحدى نوبات اختفائها الكثيرة، تساءلت إذا كان بإمكان السلحفاة أن تعيش من دون صدفتها؟ وماذا تعني الصدفة بالنسبة إليها؟ هل هي البيت، أم العالم ككل؟

سارت نحو المطبخ، وضعت إبريق الماء على النار، وأخذت من دولاب المطبخ علبة بسكويت ماري مفتوحة، وجدت أن النمل تسلَّل إلى قطع البسكويت المسطحة والرقيقة، رفعت البسكوتة الأولى، أطرافها متآكلة، والنمل الصغير يتحرَّك بدأب على سطح البسكوتة، ثم صار يهرب عشوائيًّا حين أحس بحركة تقتحم عالمه. لسعتها نملة عند أعلى ذراعها، نفضت بشرى النملة الصغيرة جدًّا عنها.

هل هذا ما يفعله النمل في جثث الموتى أيضًا؟

هل يفتِّتها كما يفتِّت البسكوتة؟

فكرت بشرى أن الجسد يتحوَّل إلى فتافيت بفعل التحلُّل، وتحمله كائنات أخرى إلى جحورها، أو بيوتها التي تقبع تحت الأرض أو فوق الشجر.

تساءلت أين تذهب كل الأفكار، الشهوات، التخيُّلات، الأمنيات، الأحلام، ألا يحمل الجسد شيئًا منها؟

هل ينتهي كل هذا مع انتهاء الجسد؟

كل هذا الوعي يزول، يصير عدمًا، مجرد فراغ هائل في الكون؟

فكَّرت أنها بعد الموت، وبعد أن يتم دفنها في مكان مجهول لا تعرف أين سيكون، سيأتي دود الأرض، وحشرات صغيرة ليعملوا جميعًا على جسدها هذا، كما عمل النمل على جسد البسكوتة الهش، وأن أجزاء من خلاياها ستستقر في جحر النمل، أو ستنتقل لسبب ما وتنمو في تربة شجرة المشمش التي تحبها.

ابتسمت حين تخيَّلت نفسها، جزءًا من شجرة المشمش، وغمرها إحساس أن شجرة المشمش في ساحة بيتهم في دمشق كانت تحس وترى وتسمع، لأن إحدى خلايا الوعي انتقلت إليها من أحد ما. لذا كانت شجرة المشمش قادرة على الإحساس بملامسة بشرى لجذعها وأغصانها وأوراقها الصغيرة.

كانت كل فكرة تقودها إلى فكرة أخرى، لذا أحست بقشعريرة، وهي تتخيَّل أن الحيوانات أيضًا قد تأخذ جزءًا من هذا الجسد المتحلِّل، ربما تمر سنوات على حدوث هذا، لكنه سيحدث.

هل لكل هذه الأسباب يضعون أجساد الموتى في بيــوت متلاصــقة تسمى"مقابر"، وتختار العائلات أن يكون لديها "مدفن خاص"، كــي لا تختلط أجسادها مع أجساد غريبة حتى بعد الموت؟

تذكر أباها، بعد إصابته بمرض السرطان، كيف صار مشغولًا بشراء قبر، تذكر أنهم باعوا محل المكتبة، وأنفقوا جزءًا من المــال في العــلاج، والجزء الآخر في شراء قبر لأبيها. هل أرادت أمها العودة إلى مصر كــي تموت في المكان الذي ستتحلَّل فيه جثتها؟

وهي، أين ستموت؟ أي تربة ستلم هذا الجسد، وأي ريح ســتهب عليه لتحمله بعيدًا؟

جاءت إليها كل تلك الأفكار من واقع البسكوتة المتآكلة، وكانــت تسأل نفسها هذه الأسئلة وهي تلقي بالبسكويت المفتَّــت في القمامــة. فتحت الحنفية وغسلت يديها من أعلى الذراعين، تركت الماء ينســاب عليهما، قبل أن تمد اليدين المبلولتين أمامها، نظرت إلى يديها، ثم رجليها، ثم كامل جسدها، تأكدت أنها ستموت أيضًا وأن جسدها ســيأخذ دورة التحلُّل تلك، وأن خلاياها ستتفرق في أماكن كثيرة حسب حركة الريح، وأن لا أحد سيعرف أن هنالك خلية كامنة لفتاة تــدعى بشــرى، أو أن خلية وعيها الكبرى، ستظل كتلة جامدة، قبل أن تواصل ارتحالها لتطفــو فوق موجة أو جبل أو في رحم امرأة مجهولة. أحسَّت أنها لــو أكملــت تعقب سيرورة التحلل تلك، فإنها ستصل إلى معرفة مــا، تجعلــها تحــس بتعاطف مع كل الكائنات الحية والجامدة، لأن كل تلك الكائنــات قــد

تتداخل فيما بينها. وأنها تتساوى تحت التراب. ولا يمكن لأي خلية صامتة أن تعترض على قانون التفاعل وترفضه بحجة أنها خلية عاقلة، خلية بشرية أرقى من سائر الخلايا، وأنها كانت – في وقت ما– خلية واعية قادرة على الفعل.

هي لا تعرف، لم تعد تعرف شيئًا لأن الأسئلة تورثها مزيدًا من إحساس أسى غامض. قرَّبت أنفها من ذراعيها، شمَّت رائحتها، وفكَّرت أن هذه الرائحة ستتلاشى أيضًا.

في تلك اللحظة، ظهرت صورة نورجهان في ذاكرتها. فكَّرت بشرى أنها رغم رؤيتها لصور كثيرة من حياتها، فإنها لم تتمكن من معرفة تفاصيلها الصغيرة، وأن كل ما استطاعت رؤيته منها حتى الآن هو صور، مجرد صور تتحرك بين أماكن مختلفة.

تمكنت بشرى من شم رائحة المكان الذي سكنت فيه نورجهان، كما لو أن رائحة بخور نفاذة تفوح من مبخرة تطوف بها خادمتها. عادة قديمة، ورثتها نورجهان عن جدتها، وظلت تحرص على إعطاء التعليمات لخادمتها في الطواف بالبخور يوم الجمعة، بعد صلاة الظهر. تمر الخادمة بالمبخرة عند عتبات القصر، وبوابته الداخلية، تقرأ آيات من القرآن، وتتمتم بأدعية وابتهالات، تؤكد على تصالحها مع الأرواح التي تسكن المكان.

رائحة البخور النفاذة، ظلت عالقة في ذاكرتها بشكل قــوي، كمــا ظلت عالقة بمخيلتها صورة شجرة الجوافة التي تقع في الفنــاء الخلفــي لقصر نورجهان، لكن ثمة برودة أحستها بشرى في ذاك القصر الكــبير، برودة في الجدران، في غرف الصالونات الكبيرة الواجمــة، وفي المائــدة المستطيلة والطويلة جدًّا التي تتسع لأكثر من عشرين شخصًا.

كان هناك مصدر دفء واحد من الممكن الإحساس بوجوده، يفوح من ياسمين ممزوج ببنفسج نقي، تلك الرائحــة تســكن في غرفــة نــوم نورجهان، وفي ثيابها، وفي علبة مجوهراتها الصغيرة، وفي كرسي الشــرفة التي تجلس عليه، وفي الدفتر الذي تكتب به قصائدها، وفي قلــم الحــبر الأسود الذي قامت بكسره في إحدى نوبات غضبها. تلــك الرائحــة تسكن كل ما تلمسه نورجهان.

لكن بشرى أيضًا تمكَّنت من شم رائحة بيت العائلة الفقــيرة الــتي تزورها نورجهان بعد ظهر يوم الجمعة، عائلة تسكن في فنــاء القصــر. تتناول الغذاء برفقة تلك العائلة، تجلس معهم على الأرض، تحتضن الطفل الصغير، وتتحدث مع المرأة التي تتحرك بسرعة وهي ترتــدي جلابيــة سوداء عليها بقع زيت. لو دقَّقت بشرى أكثر ستميز رائحة جلابية تلك المرأة، والدة الأطفال الثلاثة، رائحة تشبه رائحــة التــراب الممــزوج بالأعشاب وزرق الحمام.

ليس لديها سوى حدسها الذي ينبئها عن أصل الحكاية، لكن ما هو الحدس، وكيف تصدقه؟

لم لا تتذكر كل التفاصيل بوضوح، كما يحدث للأشخاص الذين قرأت وسمعت عنهم؟ هل من الممكن أن تكون كل هذه الحكايات وهمًا، وأنهم جميعًا يتخيلون حيوات سابقة عاشوها، ولم تحدث حقًّا؟ وهي أين تضع حكايتها؟

حين سألت ناجي ذات مرة عن وجهة نظره في تكرار الحياة في أزمنة مختلفة، قال إن هذه الفكرة ليست إلا وهمًا إنسانيًّا جميلًا من اختراع البشر. حكى لها عن معتقدات ملوك الفراعنة، الذين يأخذون معهم إلى الضريح كل متعلَّقاتهم الثمينة، وأن الفراعنة هم أول من أعطى الخنفساء المضيئة كل هذا الاهتمام لاعتقادهم أن طريقة حياتها الصارمة تمثل نسخة لدورة الحياة الأبدية. تناقشا طويلًا في الغاية من بناء الأهرامات، وأن آثار هذه الحضارة العظيمة، تأتي من إيمانهم بخلود الروح.لكن بشرى كانت تفكر في الرجوع المؤقت للحياة عبر جسد جديد، يحمل ذاكرته المثقوبة معه من زمن إلى آخر.

مضت في رحلة بحثها أكثر. صارت تتردد على أرشيف الصحف والمجلات القديمة. تُمضي ساعات وساعات وهي تبحث في حقبة زمنية مضت. تحاول أن تجد بين السطور اسمًا تبحث عنه. وفي كل مرة كانت تغادر يائسة، تتابع سيرها قرب كورنيش النيل، وهي تحس أنها تشبه البحَّار العجوز في رواية "الشيخ والبحر." تفكر في بعض الأحيان أنها تقوم ببحث لا طائل منه سوى إشباع حاجتها للتأكُّد من هاتف ما. لكنها أصرت على الاستمرار، فما الذي يضير في أن تطلع على كل هذه

المعلومات، هذا ما كانت تبرره لذاتها. تقرأ عن زمن تغمرها غبطة وهي تتابع خيوطه الشبحية.

مع مرور الأيام والأسابيع والأشهر اندمجت بشرى في القراءة من دون انتظار للهدف. صارت القراءة هي الهدف بحد ذاتها. اكتشاف معرفة تحمل لها متعة ليس إلا. تآلفت مع حكايات قديمة، ومع الرائحة العتيقة للورق، والصور بالأبيض والأسود. تجلس بالساعات بلا كلل، تبدو كمن يعد بحثًا، مواظبة على الحضور والقراءة. عرفت الكثير عن مصر في زمن مضى.

بعد مضي عدة أشهر، وفي إحدى المجلات التي كانت تتصفَّحها، وجدت صورة جماعية لعدة أشخاص، تعلَّقت عيناها على وجه يشغل الجانب الأيمن من الصورة. ظلت تحدق في الوجه المجهول لدقائق. تكاد عيناها لا ترف من شدة الذهول. كما لو أن ذاك الوجه هو وجهها. لولا أن شعرها في الصورة أقصر مما هو الآن. من معها؟ من هؤلاء الموجودون في الصورة. قرأت أسماء لا تعرفها، ولا تتذكرها، ثم قرأت تتمة الأسماء تحت الصورة، من اليمين: الأميرة نورجهان حكمت.

قطعت تلك الصفحة خلسة، وأخذتها معها. تمنَّت أن لا يُكتشف أمرها، إذ لم يكن في مقدورها أن تترك الدليل الذي وجدته بعد طول بحث. وجه يتطابق مع وجهها، واسم يلمع في ذاكرتها مثل فلاشات مضيئة في صحراء معتمة.

كان ناجي أول شخص فردت أمامه ورقة المجلة. وهي تقــول لــه "انظر" نقل ناجي بصره بين الصورة ووجهها، بدا متشكّكًا قليلًا وهــو يقول لها: "أيوه في شبه كبير"

أحسَّت بخيبة أمل وهي تسأله "شبه بس؟"

تابع ناجي كلامه "الحقيقة مش عارف"

ردَّت بشرى "لا أحد يمكنه أن يعرف.." صمتت قليلًــا ثم تابعــت جملتها "إلا أنا."

قال ناجي: "ممكن التصديق فقط أن ذكريات الإنسان تنتقــل عــن طريق الجينات الوراثية مثل استطاعة الطفل أن يرضع من ثدي أمه، وهذا ينتقل عن طريق الذكريات الموجودة داخل الجينات. "

وكما لو أنها تخاطب نفسها قالت بشرى: وهل من الممكن أن تنتقل ذكريات إنسان ميت لإنسان لا يعرفه أبدًا عن طريق العقل والتخاطــب بين العقول؟"

ظل سؤالها معلقًا في الفراغ.. تذكرت زيارتها للشــيخ في دمشــق، وكيف خرجت من بيته الصغير، وهي تشبه إحساسها بعبارة: "أنقذ سمكة من الغرق"، لكن الآن تحس أنها تمسك السمكة بكلتــا يــديها، لكــن السمكة تنــزلق منها وتعود إلى البحر.

* * *

جسدها يتعذّب.. يعاني أوجاعًا في رأسه، وآلامًا في قلبه لأنه يحس بفقدان جزء من ذاكرته الكلية، انجذابه يشبه السقوط في بئر عميقة، داخله، لكنه عاجز عن استعادة ما سقط فيها. بشرى لا يمكنها أبدًا أن تستعيدني، لأني لم أكن يومًا خارجها، وهي تبحث عني بعيدًا، فيما أنا أسكن في الركن الأقصى من وعيها؛ وهي يصعب عليها البحث طويلًا. تصاب بالتعب في منتصف الطريق، تسقط متعثّرة في التراب، ولا تتم مسيرتها. ما إن تطء قدماها القسم المعتم من الغابة، الجزء الذي تشابكت أغصانه وهرمت، حتى تخشى السير أكثر، تتراجع خائفة لأنها لا تجرؤ على الاقتراب. لذا لا تصل إليَّ، لكنها ستظل تحيا مرهقة وهي تشك بوجودي وحقيقتي، بحياتي، وموتي، ثم استمراري من جديد. عبرها هي، ومن هذا الكون الشاسع أستمد قدرتي على الرحيل من زمن إلى زمن، كي أنقل لها وللعالم خبرات حيوات مضت، كي أحكي حكايتي، وموتي القصري، ورحلة العدم الطويلة، والرغبة الشديدة بالحياة من جديد، أردت اختبار الفرح في الجسد، ونيل وعي ناضج بدل تبديد الأيام في الفراغ. وتمنيتُ الموت بسكون بدل طعنات في الظلام.

* * *

تلك الصورة ربما كانت لها، وذاك الماضي كان جزءًا من عالمها في وقت ما، وعليها تتبُّع الخيوط حتى النهاية، كي تصل إلى الغاية من حياتها الحالية. لا يمكنها أن تتراجع الآن بعد أن وجدت إشارات تأخذ بيدها.لكنها في ساعات أخرى تتذكَّر عبارات ناجي بأنه ربما مجرد شبه، ومجرد صدفة. أليس هذا محتملًا أيضًا؟

أرادت أن تثبت لنفسها أولًا أن ما تراه ليس خيالًا، ولا خداعًا مــن العقل الباطن، لذا كانت مثل من ورث ثروة من قريب مجهــول حــين عثرت على تلك الصفحة من المجلة العتيقة.

لكن تلك الصورة المهملة والمنسية في مجلة مضى علــى صــدورها أعوام طويلة جدا، غيَّرت محور أفكارها، وقادهــا للبحــث في الأسمــاء الأخرى الموجودة في الصورة. هكذا تتبَّعت بشرى طرف خيط آخــر في معرفة من هؤلاء الأشخاص وما علاقتهم مــع "نورجهــان حكمــت." وخلال تتبُّعها لحيوات سكان الصورة، وجدت عبارات قليلة عن مكــان يدعى "قصر اللؤلؤ." عرفت اسم مالكه، وجيه ثري، مهــتم بالثقافــة، ومشغول بمحاولات جادة للارتقاء بمصر، لكن ما علاقة "قصر اللؤلــؤ" بنورجهان، هل كانت تعيش فيه، أم تتردَّد عليه، وهل هذا المكان موجود حتى الآن أم أنه مهجور ومتروك للقطط والفئران لتسرح فيه.

سألت نجيب القاضي إن كان يعرف قصرًا اسمه "قصر اللؤلــؤ." لم يعطها إجابة مؤكَّدة، قال لها قصدك: "قصر اللولي"، سامع عنــه، بــس ماعرفش مكانه، ده كان لأمير أو لواحد من باشوات زمان، يمكن يكون في المنيل أو الزمالك، بس غير متأكِّد، وانت مهتمَّة ليه؟"

ردَّت: "مجرد سؤال."

في الأسابيع اللاحقة، صارت تذهب في جولات ميدانية، وحيــدة، ومرات أخرى مع ناجي، أرادت اكتشاف قصور القاهرة، إيجاد القصــر

الذي تبحث عنه، كانت على يقين أنها ستجده. حين يكون ناجي برفقتها يقوم بالتقاط الصور، لكل القصور والأبنية التراثية المهملة التي توقفوا عندها، في جاردن سيتي، والزمالك، ومصر الجديدة، ولم يكن بينها القصر الذي تراه في ذاكرتها.

* * *

صوت الخطوات على الأرض، في الظلام، إنها الدروب، الطرق، الشوارع، أسماء لمسارات مختلفة لكنها تقود رويدًا رويدًا إلى النهايات الوشيكة، التي تلوح مع الاقتراب منها.

سرت ارتعاشة في كل جسدها ذاك النهار. كانت ترتجف كمن يعاني حمَّى، أو يأكل الثلج أطرافه. انسحبت إلى زمن آخر، إلى ذاكرة سحيقة أحالتها في لحظات، من صقيع البرد، إلى احتراق الذكرى.

ما الذي يعنيه اكتشاف ذاك القصر المتهدِّم، القريب من ضفة النيل، في وسط المنيل قريبًا من بيتها، على بعد شارعين. من بين كل القصور التي شاهدتها خلال رحلتها عرفته، بعد أشهر من التجوال اكتشفت أن ما تبحث عنه كان قريبًا منها حد عدم قدرتها على رؤيته، تذكَّرت كلمات الشيخ الذي زارته في دمشق "علينا أن نتقبَّل النداء.. ننصت له من دون خوف"، حضرت تلك الكلمات في ذهنها وهي تسير بخطوات مرتعشة داخل القصر.

تمكنت من تمييز الأعمدة القديمة، الجدران الـــتي رأتهـــا مـــرارًا في ذاكرتها، الطلاء متآكل، الغرف فارغة، المكان يعيث الهجر في مســـاماته. كانت هي وناجي. وجدا رجلًا يرتدي زيًّا صعيديًّا، ويقـــيم في كشـــك صغير بجانب القصر، عرف عن نفسه بأنه البواب حارس القصر، وبعـــد محاولة ناجي للبدء في حوار معه، بعد تقديم سيجارة تلـــو أخـــرى بـــدأ بالكلام، أخبره ناجي بأنه مهندس، وأن بشرى مساعدة له، وأنهما يعملان في شركة كبيرة تنوي شراء هذا القصر، هدمه، وبناء مشـــروع ســـكني ضخم مكانه. أخبرهما البواب عن قريب للعائلة يعيش في أميركا، يـــأتي ليتفقَّد القصر كل عدة أعوام، وأنه ينوي بيعه بالفعل لكنه لم يتلقَّ المقابل المادي الذي يريده. حاولت هي سؤال البواب عن اسم أصحاب القصر لكنه لم يخبرها إلا عن اسم "يسري بيه" الذي كان أحد أجـــداده مالكًـــا للقصر. تسلَّلت إلى الداخل، جالت في القصر وهي مغمضة العيـــنين، لم تنبس بحرف، فقد أصر البواب على مرافقتهما، سارت بجانـــب نـــاجي، وراحت تدله على أماكن الغرف، هنا كانت غرفة السفرة الكـــبيرة، في اليسار غرفة المكتب، هناك الشرفة الصغيرة التي تكاد حافتها تلامس مياه النهر، وفي الأعلى توجد غرفة نورجهان، تلك الغرفة الكئيبة التي عرفت أحزانها كلها. واحتوت جثَّتها حين ماتت. رائحة عطن، وموت، هنـــا. لم تكترث للحشرات والزواحف، والفئران التي تجول في المكـــان، بقـــدر إحساسها بتلك الرائحة العتيقة التي تعرفها جيدًا، رائحة تشبه البنفســـج المسحوق مع الفل.

تمشي كالمسحورة، همس لناجي كما لو أنها تتمتم في سـرها: "يـا الله... كيف يأتيني اليقين!."

في الفناء البعيد، في مكان خرب تحت غرفة صغيرة، يجلس قرب بابها رجل مسن، ذاك العجوز الأشيب كان يرتدي معطفًـا باليًـا مفتـوح الأزرار، لا ينسجم مع البرد الذي حل باكرًا هذا العام، كان له نظـرة ثاقبة وهو ينظر نحوها، نظرة اخترقت عظامها، فنبهتـها للتحـديق بـه، التماعة العينين تلك عرفتها من قبل، شاهدتها في مكان مـا لا تـذكره، لكنَّها متأكِّدة أنها شاهدته. مضى الرجل بعيدًا، وكأنه خاف من تحـديقها به. اقتربت بشرى وسألت الحارس من يكون هذا الرجل الذي يقـيم في تلك الغرفة، فأشار نحوه بلا مبالاة قائلًا: "ده عم صابر، راجل مسـكين موجود هنا من قبل أنا ما آجي أحرس القصر."

نظراته تخترقها، كما لو أنها سهام تطعنها في ظهرها، لمعة ألم حارقـة مكان وحمة قصب السكر، ربما البرد ينخر مكانها فتسبَّب لها ألمًا... هـل عليها الانسحاب الآن، والاكتفاء بهذا القدر؟

أسئلة، تلو أسئلة. تأكل روحها، من دون إجابات.

هل ما يحدث حقيقي، أم هي واهمة! ربما يظن الجميع أن ما تـراه في ذاكرتها، وما تراه في الواقع ليس حقيقيًّا. صدقها ناجي حين كانت تشير إلى أماكن الغرف، وحين سحبته من يده كي تريـه غرفـة نورجهـان، والمكان الذي سقط فيه جسدها بطعنة مجهولة، وكأن وجودها في المكـان

صار يعصف في داخلها مزيد من الصور، هنا كانت مرآها، وعلى هــذه الأرض سالت دماؤها، وهنا دخل أشخاص غرباء ليشاهدوا جثّتها.

من الذي جاء لدفنها، هل يكون أخوها الوحيد المهــاجر، أم أحــد أبنائه؟ ومن يكون

"حكمت يسري" هذا، الذي يريد بيع القصر؟ أين ذهبت الرســائل التي كانت تكتبها؟ وهل أخذها هذا المجهول؟

اقتربت من الحارس وسألته إن كان يعرف أي شيءٍ عــن ســكان القصر، أجابها بالنفي، وأنه يعمل هنا من خمسة أعوام فقط، ولم يلتــق إلا حكمت يسري، وهو أحد أحفاد الأمير الكبير صاحب القصر..

عند مغادرهما المكان، كانت تحس بحاجــة قصــوى، للعــودة إلى غرفتها، للتمدُّد في سريرها.. العودة إلى ذاها كي تستوعب ما شــاهدته اليوم. لم يقل ناجي سوى عبارة واحدة "غريب جدًّا"، لكن الأغــرب أن ناجي في ذاك اليوم، لم يلتقط للقصر أي صورة. وكأن ليس هنــاك مــن ضرورة لالتماع فلاش الكاميرا عند هذا المكان الذي تعرفه رفيقته جيدًا، وتحفظ تفاصيله، وزواياه، وأماكنه الخفية.

لم يتركها ناجي تصعد وحدها إلى البيت، رافقها إلى أعلــى، كــان جسدها يرتجف، برد يداهم أطرافها.

أعد ناجي كوبين من الشاي وجلس بجانبها، سألها عن موعد عــودة أسماء، أومأت له بأنها لا تعرف، طلب منها رقم هاتفها لأنه لا يستطيع أن

يتركها وحدها الآن. "أنت بحاجة إلى دكتور؟" سـألها وهـي ترقـد في سريرها، أجابته بالنفي، فنظر اليها بتشكك.

كادت تقول له، إنها منذ عودتها للقاهرة، وربما قبل هذا أيضًا، وهي عالقة بين زمنين، لا هي قادرة على الخطو للحياة في زمـن الآن تمامًـا، ونسيان كل الماضي، ولا هي مؤمنة بما يقوله حدسها، فتظل تراوح، لكن اليوم حسمت أمرها. وبدلًا من هذا قالت له:

"سأسافر، لم يعد ما يلزم بقائي هنا."

"أين؟"

"سأحاول السفر إلى دبي وأعمل في فرع الشركة هناك"

تفاجأ ناجي بكلماتها، ظل صامتًا لهنيهة قبل أن يقول: "لم؟"

"لا أدري، أحس بحاجة إلى الابتعاد عن هنا"

"لم لا تعودين إلى دمشق إذن!"

"لأن فيها ذاكرتي أيضًا، وأنا أبحث عن مكان جديد، أخف حملًا على الروح، مكان لا تسحبني فيه خيوط الماضي إلى البعيد."

"نامي.. نامي الآن حبيبتي."

* * *

متُّ مقتولة. تلقيت تلك الطعنة في جانب صدري الأيسر، عند القلب تمامًا. لم أعرف من هو قاتلي، كان يضع قناعًا على وجهه، لذا لم أره. لم أخمن أن هناك من يفكر بقتلي أبدًا. الموت المباغت مرعب. لم أمت في سريري، ولا على فراش مرضي وحولي أشخاص يحبونني. جاءتني طعنة في الظلام لتنهي حياتي. حياة، أي حياة مضت وأنا خائفة من كل شيء ومن لا شيء.

لم افترقت عن يوسف؟ لم تركته يسافر! مضى وهو يحاول إقناعي بالرحيل معه إلى بلد بعيد، كي نحافظ على حبنا، هناك يمكننا أن نتزوَّج، ولن نظل ملاحقين بالسؤال عن الهوية الدينية، لكل منا. وإن كانت متطابقة أم لا!

في البداية لم نكن منشغلين بصواب هذا الحب، أو بشكل نهايته. لم نهتم بالأمر إلا بعد أن طالت الألسن زياراته لي. وصرت مطالبة بإيجاد مبرِّر لعلاقتنا. ألمس الصليب المنقوش على يده، وأعرف أني مصلوبة في وحدتي وضعفي عن اتخاذ قرار. قال لي إنه سيهاجر، وطلب مني أن أهاجر معه، لم أبق هنا؟ وأنا وحدي، من بقي لي بعد وفاة أمي، وبعد أن مضى أخي وأختي كل في سبيله، يغادرون ويأتون وأنا هنا، أنتظر.

القصر الكبير بارد، وأنا مع بعض أفراد من الخدم، ظلوا معي ليس لحاجتي إليهم، بقدر ما كنت أخاف من بقائي وحدي.

لم بقيت هنا؟ كي ألاقي حتفي؟ في نهاية جعلت مني شبحًا هائمًا، روحًا معذّبة تطوف حول الماضي بلا جدوى. ما الذي كنته أنا قبل أن أعود للحياة من جديد؟

سُلبت حياتي مرتين. المرة الأولى، حين كنت في جسد سولاي، صبية غجرية، تغني وترقص ببهجة وحرية، وحين ترافق طبيب عربي في رحلته الطويلة من الأندلس إلى مصر، تموت من مرض عضال وهي في ريعان صباها. في حياتي الثانية كان قدري مختلفًا، لم أكن حرَّة ولا فقيرة، كنت أميرة، مقيدة بالجاه والثراء كنت نورجهان. وقتلت طعنًا من يد جاهلة، عبثت بدولاب ثيابي، بحثا عن المال والمجوهرات. يد قتلتني وتعذّبت فلم تهنأ براحة النفس ولا بنعيم المال.

في حياتي هذه، في جسدي الجديد، أحمل أثر طعنة قرب القلب، ندبة طفيفة، تشبه آثار عملية جراحية. وفي السكون تتذكّر بشرى جزءًا مما مضى، تتوجَّع من التذكُّر، لذا لا تريد التوغُّل أكثر في الماضي. هي معذّبة بنتف قطن سوداء متروكة، في قلب ذاكرتها، لكنها لا تتمكن من تشكيل نسيج مترابط، كلما لمحت آلة عود تتحرَّك أصابعها، رغبة بملامسته واحتضانه، ويغمرها الحنين للصوت الشجي الذي سجلته ذاكرتها مرات ومرات.

تتشابه تفاصيل حياتي مع تفاصيل حياتها، نمضي في روح واحدة عبر أكثر من جسد، لنشكل ذاكرات تتراكم فوق بعضها مثل الجماجم الميتة، خرساء وصامته، تراقب عن كثب كل ما يدور حولها، وتسبِّب الخوف لمن يحدِّق في فجوات العيون.

القاتل والمقتول

ينادون عليه "عم صابر"، يعرفون أنه رجـــل مســـكين، طيب، وهو وحده يعرف أن له وجهـــين، وحكـــايتين، وزمانين، وكلها حقيقية.

صعقته نظرة تلك الفتاة المجهولة، خمَّن أنها عرفته والتقطتـــه مـــن وســـط ملايين البشر، أحس بالرعب وهي تنظر نحوه، ثم اقتربت وحـــدَّقت بـــه وجهًا لوجه. مضى مذعورًا من أمامها، كما لو هناك شيفرة سرية بينـــه وبينها لا يفهمها إلا هما.

مضى إلى غرفته، وأغلق بابها الخشبي بالقفل الذي يضعه ليلًا، جلس على السرير، قرأ آية الكرسي والمعوذات. ها هو الشبح يظهر له حقيقة، لم يعد مجرد شبح، بل صار إنسانًا من لحم ودم، سيلاحقه دومًا، ويتلـــذَّذ بتعذيبه، وربما يختار قتله.

تلك الفتاة لم تفعل شيئًا سوى أنها حدَّقت به، نظرة نافـــذة، تقـــرأ البصيرة، ولا يمكن لمثله أن يُخطئها. هو يعرف هذه النظرة، شاهدها من قبل مرارًا، تلك العينين، هذه القامة النحيلة، والشـــعر المنســـدل، رأى صاحبتهم قبل ستين عامًا، كانت هنا، لكنها أكبر بسنوات من هذه الفتاة التي أتت برفقة شاب في مثل سنِّها تبحث عن شيء ما في القصر، ربمـــا عنه. شاهدها وهي تتحدَّث مع الحارس، ثم تصعد إلى القصـــر، وحـــين

نزلت وتجولت في فناء القصر لمحته، لا يعرف كيف تمكَّنت من رؤيته، كيف خمَّنت بوجوده، بجانب تلك الخرائب التي لا يعن على بال أحد الاقتراب منها، وحين نظرت إليه طويلًا، أحس أنها على وشك أن تهجم عليه وتقتله.

هو الرجل الثمانيني المنتهي، ثمة من يريد قتله. من تكون تلك الفتاة، هل تكون قريبتها، حفيدتها، ما سر ذاك الشبه؟ لكن كيف عرفته؟ وعما جاءت تبحث هنا؟ هل أتت لتؤكِّد أن لا شيء يموت تمامًا؟ جاءت لتنبش الماضي حين انتهى! لكن الشبح لا يريد لتلك الحكايات أن تنتهي. هل تعرف تلك الفتاة شبح الأميرة، هل راح إليها، وأخبرها القصة لتأتي إليه وتكشف وجوده، وتعرف أنه ما يزال هنا، ملاحقًا بتلك اللعنة، كلما حاول الفرار والابتعاد عن القصر، يظهر له شبح الأميرة فيقلب أيامه إلى مرار في الليل والنهار، ذاك الشبح لا يختفي إلا حين يعود صابر إلى هذه الغرفة البائسة عرف أنه مصلوب أمام القصر المعتم المخيف، في غرفة بائسة وصوت الكلاب ينبح من حوله، هو هنا ليتذكر. يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، يصلي كثيرًا، لكن أبواب السماء مقفلة في وجهه. يبدو مثل متسوِّل يحوم حول مكان يرجو أن ينال منه كسرة خبز. لكن ما الذي يحلم صابر بنواله، وذاك الشبح يريد بقاؤه هنا. لقد كان السبب في وجود ذاك الشبح، وعليه أن يتقبَّل نتائج فعلته.

لا يمكنه الهرب أبدًا، لا يمكنه الفرار.

مضى عليه ستون عامًا منذ تلك الليلة المشؤومة، ستون عامًا وهـــو يهرب من هذا المكان ويعود إليه. وها هو الآن عجوز تجـــاوز الثمـــانين، يعيش وحيدًا، يحيط به القبح في كل مكان، ورغم هذا يستمر بالحيـــاة، كما لو أن هناك قوة دافعة تجبره على العيش، قوة تعرف أنـــه يتعـــذب ويقاسي من تلك القبضة المسماة "الضمير."

ينتظر الموت الأكبر، لم يعد أمامه سوى انتظار موته النهائي، اشترى كفنه، وطواه ووضعه تحت السرير، وأخبر جميع من يعرفه عـــن مكـــان وجوده، سيدفنونه حتمًا، سيجد أحدهم جثته، ويواريه التراب. هل مـــن الممكن أن يموت مقتولًا بعد هذا العمر؟ هل من المعقول أن يرى التماعـــة عين قاتله، لينال القصاص.

تلك السنوات الطوال، مضت عليه من دون أي محاولة للنســـيان، فهو ما يزال يعيش هنا قرب القصر المتهالك، وحوله كل مـــا يســـتدعي الذكرى. عرف بعد تلك الطعنة، أن بين القاتل والقتيـــل ثـــأرًا أبـــديًا، فالقتيل يترك عند القاتل ظله، أو شبحه. وذاك الشبح يعاود الظهور كل ليلة. لا ينسى القاتل النظرة الأخيرة التي يشاهدها في عيني القتيل، وتظل تلك النظرة الثابتة عند لحظة معينة تلاحقه مثل لعنة أبدية.

يكاد يقسم أن تلك الفتاة تعرف كل ما حدث، لا يـــدري كيـــف عرفت، لكنه متأكد أنها أرادت قتله، رأى يديها تتحركان وهـــي تنظـــر نحوه، وكأن تلك اليدين توشكان على خنقه. لم يثنها ضـــعفه، وهزالـــه، ووجهه المليء بالتجاعيد، وهيئته الرثة. وكأنه سمعها تسأل الحارس عنـــه:

"من هذا" يقول لها: "عم صابر، موجود هنا من زمان.. زمان قوي." تهزُّ رأسها وتقترب منه لتحدِّق به، وحدها العيون لا تتغيَّر، تكشف هوية الإنسان، هي عرفته وهو عرفها. لا يدري إلى ماذا ستؤدي تلك المعرفة، وما إذا كان أحدهما سيقتل الآخر، سينهي حياته، كي يستمر هو بالحياة. ماذا سيفعل لو حاولت هي قتله؟ هل يقتلها؟ هل يطعنها مثل تلك الطعنة، لتصير شبحًا آخر يعذبه؟ وهو هل سيعيش طويلًا كي يتعذَّب؟

الآن

كما كان من الصعب عليها إثبات حقيقة حياتها السابقة، صار من الصعب نفيها الآن. لكن ماذا بعد! كانت تطرح على ذاتها هذا السؤال، وتظل لساعات تُقلِّب الإجابات، متذكِّرة كل ما عرفته عن حياة نورجهان، وكأنها تحس أن ثمة ما لم يُقل بعد.

كانت أسماء تقول لها: "أنت تهربين إلى الماضي، وفي أحيان أخرى تتجاوب مع أفكارها فتقول لها، لو كنتُ عشتُ في حياة سابقة من المؤكَّد أني كنت طاهية، أو صاحبة مطعم." كان الأمر بالنسبة إلى أسماء ليس لديه مدلولات مؤلمة، بل مجرد حكايات غريبة تحمل طرافتها الخاصة، لذا غالبًا تختم كلامها قائلة: "ما يهم هو الآن."

في داخلها، توافق بشرى على وجهة النظر تلك، فلم يعد لديها طريق آخر غير القبول بهذه النتيجة. فكل العبارات لم تعد مجدية بعد أن أزيل الماضي تمامًا كما لو أنه لم يكن، ولا يوجد ما يؤكد حدوثه. مضت عشرة أيام على زيارتها للقصر، كانت خلالها متعبة، بجسد معتل وروح منهكة، أخذت إجازة من العمل لمدة أسبوع، بعد أن ذهبت في الأيام الأولى وهي في حالة من السقم. في اليوم الحادي عشر قررت الذهاب وحيدة إلى القصر، والحديث هذه المرة مع الرجل العجوز الذي وصفه الحارس بأنه يعيش هنا منذ زمن قديم، وقال إن اسمه صابر.

وكما يحدث في القصص والأساطير، وحكايات الجان، لم تجد القصر الذي كان قائمًا منذ أيام، وجدت عمالًا باشروا بهدمه، بحيث لم يبق منه إلا بقايا أعمدة، كان من الواضح أنهم سيشرعون بهدمها قريبًا. أما غرفة ذاك المدعو صابر فقد كانت فارغة. لم تجد الحارس الذي شاهدته في المرة الأولى، ظلَّت تجوب الشارع لأكثر من ساعتين على أمل أن يعود، وبعد أن أوشكت على اليأس من قدومه، وجدته يقترب من القصر برفقة رجل آخر، يبدو أنه المقاول الذي سيشرع ببناء عمارات حديثة مكان القصر.

في البداية كانت مرتبكة من اختيار النقطة التي ستبدأ منها الحوار، لكنها حين أحسَّت أن الحارس تذكَّرها، واستقبلها بنوع من الترحاب، بادرت للسؤال عما حدث للقصر خلال الأيام القليلة، عرفت منه أن حكمت يسري جاء إلى مصر وأنه باع القصر، ومن اشتراه قرَّر هدمه وبناء عمارات سكنية حديثة في مكانه. وحين سألته وهي تشير نحو الغرفة التي كان يسكن فيها صابر، قال الحارس بمسحة حزن: "ربنا افتكره من أسبوع"

ردَّدت بذهول: "مات... هو مات بجد"

استغرب الحارس اهتمامها به، وربما شكَّ في قواها العقلية لما بدا عليها من مفاجأة بالخبر، وكما لو أن صابر هذا يعنيها بشكل شخصي. مات بعد زيارتها للقصر بيومين أو ثلاثة، هل هذه مصادفة؟ هل للموت مواعيد؟ لم مات صابر الآن، أليس من المحتمل أن يكون عارفًا بعض المعلومات عن سكَّان القصر، عن نورجهان حكمت، عن حياتها وموتها،

وما إذ كانت ماتت قتيلة بالفعل كما تتذكر بشرى، لكن صابر مــات، وليس من خيط حي يدلها على تفاصيل أكثر في تلك الحكاية. لكن لم لا تسأل الحارس عن حكمت يسري، أين هو الآن؟ أليس من الممكــن أن تلتقي به، ربما يعرف الكثير أيضًا؟ لكنها تراجعت عن السؤال، لأنهــا لم تعد ترغب بالدخول في متاهة جديدة.

ظلت فكرة السفر في داخلها، قابعة في مكان ما، مؤجلة لأســباب عدة، لعل أهمها ناجي بعد ما قاله لها منذ أيام، وما يحتاج منها إلى إعلان موقف. كان هناك أيضًا أسباب أخرى تتعلق بكل التفاصيل الحياتية التي ترتبط بها في القاهرة: عملها، البيت الذي اشترته أمها، والــذي ينبغــي عليها بيعه والاستفادة من المال الذي ستجنيه منه في مســاعدتها علــى الهجرة، لكن في مقابل هذا كانت تفكِّر، ماذا لو لم تحب الحياة في مكــان آخر، وأرادت العودة إلى هنا، لهذا السبب أحسَّت بالحاجة إلى التريُّث في قرارها.

في صباح اليوم التالي، استيقظت باكرًا، كان عليهــا الــذهاب إلى عملها، انتهت أيام الإجازة. أحسَّت كما لو أنها عائدة من سفر طويــل، شاق ومضنٍ. لكنه يحمل لذَّته الخاصة.

كان أول ما فكَّرت فيه هو ناجي، للمرة الأولى يحكي نــاجي عــن عواطفه بوضوح، تكلم طويلًا عن حب مكنون لم يكشفه إلا الآن، لكن لم الآن! وكأن ما بينهما حفر مجراه بعمق وتحرَّر من ثقــل الــزمن، ثمــة إحساس بالحرية والتحليق يغمرها كلمــا فكــرت بنــاجي وبقائهمــا

معًا.مضت إلى عملها وهي تفكر في عبارة ناجي "أريد أن نكمل حياتنا معًا، إن كنت تودين مشاركتي هذه الحياة. أرغب أن يكون لديَّ طفل منك، وأن نكبر ونشيخ معًا."

حين قال ناجي كلمة طفل، غمرتها ارتعاشة ورغبة قوية في حمل طفل صغير، تضمه إلى صدرها. الولادة تحمل وعودا بحياة جديدة، وهي كانت تفرغ طاقتها الأمومية في تلك اللوحات التي ترسمها، وفي الشخصيات الكرتونية التي تصنع منها عوالم متكاملة. هل تريد الحياة مع ناجي، هل ترغب أن تنجب منه طفلًا كما قال! لم يتصل بها بعد سفره، وقال إنه لن يتصل حتى تفعل هي. في تلك اللحظات ودَّت لو تسمع صوت صافي وتحكي له عن ناجي، وعن حيرة مشاعرها نحوه، كيف تريده بقوة، لكنها تخاف من تكرار تجربة زواج فاشلة. أخذت قرارًا أن لا تتصل بصافي إلا بعد أن تحسم أمرها بالقبول أو الرفض.

* * *

حين فتح الفجر بابه، أحسَّت أن وقتًا مضى وهي جالسة تحدِّق في العتمة، ارتجفت أطرافها من البرد، صوت الأذان يعلو من مئذنة مجاورة، يتضارب السكون والخوف في داخلها. أصوات الصباح تتسلَّل إلى الواقع، ارتدت ثيابًا صوفية سميكة تقاوم البرد أرادت النزول للشارع، والسير على ضفة النيل، نظرت إلى زاوية الغرفة، حيث تضع الدراجة التي تركبها، مضى عام أو أكثر منذ ركبتها آخر مرة، سحبت دراجتها بهدوء شديد، أغلقت باب الشقة بحركة سريعة، ثم بصعوبة تمكَّنت من

إدخال الدراجة إلى المصعد، غمرها ارتياح، وإحساس بالحرية. مضت تعبر الشارع، تنشَّقت الهواء عند ضفة النيل، ثم راحت تقود دراجتها بسرعة، عبرت أمام القصر المتهدِّم، لم يكن هناك حارس، ولا أي أحد آخر، الباب مُقفَل، لا يمكنها التسلُّل إلى الداخل، وقفت تتأمَّل ما تبقى موجودًا من أعمدة القصر، غمرها إحساس بالنقمة على من تسبَّب في هدمه، لم يكن إحساسها هذه المرة ينبع فقط من سر ارتباطها الخفي بالقصر، بل من إصرار من اشتراه على الهدم. كانت تقود الدراجة بسرعة، تعبر شوارع تعرفها، وأحياء لم تمر بها من قبل. هي مجذوبة إلى هذا المكان ولا تريد مغادرته، السفر الذي يلوح لها، بدا في هذه اللحظة حلًّا سخيفًا يحمل في جذوره فكرة الهروب، هي تختار المواجهات على الهرب، السفر الآن يعني بقاء كل الأشياء معلَّقة، ويعني أيضًا البدء من جديد في مكان آخر، وزمان آخر. طرحت على نفسها سؤال: "هل أنت تريدين المضي بعيدًا، ولقاء أشخاص جدد، والبدء بحياة جديدة، حياة مجهولة ليس فيها أثر للماضي، وهل الهرب فيه نجاة أم عقوبة؟"

لو كانت هناك حياة ماضية، أو قادمة فكم من الحيوات ستعيش، وكم من المرات ستموت، قبل أن تصل ليقينها الخاص بشأن الغاية من حياتها! ربما لن تعيش مرة أخرى،وربما تكون هذه الحياة فرصتها الوحيدة، الأولى والأخيرة!

"ثمة ما يدفعني للبقاء هنا،أريد أن أنجب طفلا." جاء هذا الرد من أقصى ذاتها.

* * *

ما يهم حقًا هو زمن "الآن"، أن تعيش بشرى هذا "الآن"، بكل ما فيه. مهما كان صعبًا، أو محملًا بالوجع.

لم تعد حكايتي مهمَّة، لأني مجرد وعي يقظ، يطفو في سماء الكون، يبث الصور عن بعد، ويراقب من علوه ما تفيض به حيوات البشر. لا أستطيع فعل شيء سوى الرؤية والصمت، والعوم في الفراغ المظلم، والبهي. تطفو حولي آلاف النقاط الأخرى الصامتة، تعبر من جانبي، أمرُ من جانبها، لا نتلامس، ولا نتصادم، ولا يرى بعضنا بعضًا، بل نحس فقط، ثم نمضي في رحلة تحوُّلاتنا الحتمية.

أنا مجرد صوت خافت في الفراغ الأزلي. لكني "الأنا" الأبعد. الذاكرة لأقرب حياة مضت، ولا اسم لي سوى الذاكرة القصية، شعاع الضوء الرشيد.

الآن، لا يجدي التذكر إلا لتجنُّب الألم، تلافيه، قدر المستطاع. لكن لا يمكن أن نتلافى الألم تمامًا، لأنه قدر.

بشرى تمضي حرة ومتحرِّرة من كل ثقل يبعثه فيها الماضي البعيد. ينبغي عليها ان تنسى كل ما تعرفه عن تلك الحياة، وأن تكتشف أيامها الحالية، ما الذي ستجنيه من مراقبة زمن مضى. هي باتت تعرف غاياتها أكثر. ولعل هذا ما أردته لها منذ البداية، أن تتمسَّك بما تريده. تدافع عما تختاره روحها ليس إلا. لم يعد من المجدي لها أن تعرف حكايتي، لقد تحرَّرت منها، وتمضي في سيرها عميقًا نحو "الآن." كان ينبغي أن أبعد عنها ذاك الحزن الذي يحجب كل بصيرة عن الغد، الحزن

الذي جعلها عاجزة عن التحرُك نحو الأمام. لكنها نــجت، وصـار قلبهـا متقدًا بجذوة مضيئة، خارج عالم النار والثلج.

انتهت